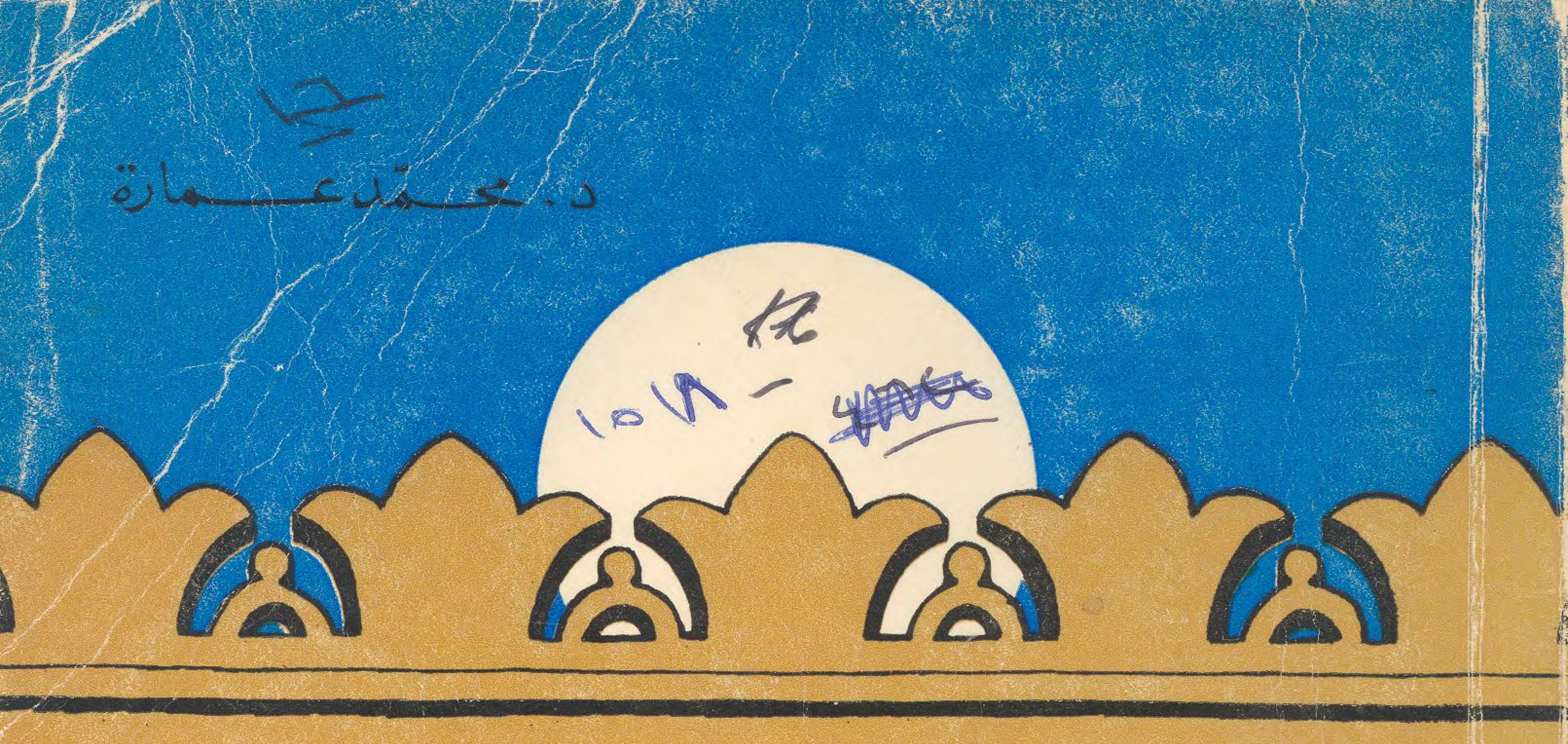


الجامعة الإسلامية والفكرة القوميّة عند مصطفى كامل

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الجامعة الإسلاميّة والفكرة القوميّة

عند

مصطفى كامل

إهـــــداء ٢٠٠٦

المرحوم / يوسف درويش

القاهرة

الدكتور محمد عماره

الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
DL
بيروت

آذار (مــارس) ١٩٧٦

الإهداء

في الذكرى المئوية لميلاد مصطفى كامل : الابن البار للوطنية المصرية .. والمناضل — من منطلق قومي — تحت رايات الجامعة الاسلامية ، باكثر مفاهيمها انسانية وتقدما .. نقدم هذه الصفحات ، ونهديها الى :

* كل الذين يؤمنون بأن استقلال مصر وتقدمها ، واستقلال العرب ووحدتهم ، ونهضة الشرق وتطوره ، انما ترتكز الى قوة روابط التضامن والنضال بين مصر وما حولها من دوائر : عربية ، وافريقية ، واسلامية ..

* والى الذين يناضلون ضد محاولات عزل مصر عن هذه الدوائر ، فيحولون بين مخططات الاستعمار واحلام الامبريالية وبين التحقيق والنجاح ..

فلقد كان وعي مصطفى كامل بروابط مصر التاريخية والحضارية والنضالية مع جيرانها هو الذي قاده النضال تحت رايات الجامعة الاسلامية .. من منطلق قومي ولغايات وطنية .... وهو الامر الذي نخصص له هذه الصفحات ..



مقدمة

دائما وابدا ، وعبر كل عصور التاريخ كان الصراع بين مصر واعدائها ، في جانب اساسي من جوانبه ، يدور حول الحدود التي اليها يمتد التأثير المصري في الرقعة الجغرافية المحيطة بها ..

ففي العصور القديمة كانت فترات ازدهار مصر وقوتها تنبع دائما من امتداد تأثيرها الحضاري والسياسي والاداري خارج حدودها وتأثرها ايضا بجيرانها ، ومن تلك الروابط التي تربطها بالرقعة الممتدة وراء حدودها الشرقية بالذات ..

وعندما كان الاضمحلال والضعف والذبول يدرك قوى مصر وحيويتها ، فتعود لتقبع خلف حدودها الجغرافية ، يجد اعداؤها الفرصة المناسبة للانقضاض عليها ، املا في اطفاء الشعلة التي تمثل مركز القيادة والتأثير في هذه الرقعة من العالم على مر العصور وتعدد الحضارات .

وبعد الفتح العربي لمصر ، وعندما اكتملت لمصر قسماتها العربية ، لغة وحضارة ، في القرن العاشر الميلادي، واصبحت مركزا للخلافة الفاطمية ، وعاصمة لامبراطورية عربية تمتد عبر حدودها الغربية والشرقية .. عند ذلك اصبحت القوة المؤثرة والرادعة لاطماع الغرب الاستعماري وعدوان قراصنته

في البحر الابيض المتوسط .. كما اصبحت القوة القابضة على طرق التجارة الدولية ومفاتيحها .

وعندما انكمشت تأثيراتها وانسحبت اعلامها الى داخل حدودها ، باضمحلال النظام الفاطمي وزحف الشيخوخة على عناصر قوته ، اصبحت تحت رحمة الدويلات الصليبية التي كانت قد قامت في الشام وفلسطين .. فتعرضت للغزو اكثر من مرة، وفرضت عليها الاتاوات ، بل واصبح للصليبيين حامية تقف على مشارف القاهرة وتمسك بمفاتيح بواباتها ؟! ..

وعندما جددت الدولة الايوبية شباب مصر عاد تأثيرها الشاب كي يعبر حدودها من جديد ، واصبح لقاؤها مع المشرق العربي واتحادها به الصخرة التي تحطمت عليها احلام الصليبيين ، ثم استمرت هذه الصخرة قائمة حتى العصر المملوكي فتحطم عليها الوجود الصليبي كلية ، وكذلك مغامرات الزحف التتري الشهير ..

وفي العصر الحديث كان عبور التأثير المصري لحدودها الجغرافية هو طوق النجاة للمنطقة العربية ــ كما وعاه محمد علي ــ من اطماع الاستعمار الغربي التي بدأت بحملة بونابرت سنة ١٧٩٨ م .. ومن هنا كان الاصرار الاستعماري على هزيمة محمد علي ، وسحب الجيش المصري من الشام في بداية العقد الخامس من القرن الماضي ، وكانت معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، التي اراد الاستعمار ان يعيد بها مصر كي تقبع داخل حدودها ، فتنقطع روابطها بالمنطقة العربية ، حتى تذبل في قوقعتها ، فيسهل عليه ازدرادها ، والقضاء على مركز طاقة القيادة والمقاومة في هذا الجزء الحساس والهام من العالم .

.. وعندما اخذت عناصر القوة في مصر تناضل لمواصلة

سيرها ونموها بعد الخمول الذي اصابها على عهد الخديو عباس باشا الاول (١٨٤٩ ـ ٨١٥٤ م) ، وكان ذلك، خاصة، في عهد الخديو اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ م) بدأت محاولتها التاريخية لمد تأثيرها وربط خيوطها مع من وراء حدودها من شعوب المنطقة ودولها .. فكانت تنمية علاقاتها بالسودان ، واحلامها في وحـدة افريقية علـى غـرار وحدة الولايـات الامريكية ، كما عبر عن ذلك رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) ، وكانت سيطرتها على شواطيء البحـر الاحمر الغربية ـ « سواكن » و « مصوع » ، وملحقاتهما ـ والشرقية ـ « زيلع » و « الحديدة » وملحقاتهما ـ وذلك تعويضا عـن الروابط العضوية مع الشام وفلسطين ، التي كان العثمانيون يحولون دون قيامها وعقدها ، خوفا من تكرار تجربتهم مع محمد علي في سنوات (١٨٣١ ـ ١٨٤١ م) .

وعندما احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ م كانت عينهم على هذه الحقيقة التي مثلت مصدر القوة لمصر والشرق العربي عبر تاريخه الطويل .. فأجبروا مصر على الانسحاب الـى داخل حدودها ، وذلك بسلخ السودان فعليا مـن نطـاق تأثيرها ، وباستعمارهم له عمليا بعد اتفاقية السودان في يناير سنة ١٨٩٩ م . وباجبارهم لها على ترك الحكم والادارة للمناطق التي الحقت بحدودها على شاطيء البحر الاحمر في الجنوب ، وهي المناطق التي الحقتها بمصر الفرمانات الصادرة من السلطان عبد العزيز خان الى الخديو اسماعيل في سنة ١٨٧٣ م وسنة ١٨٧٥ م .

كان هذا هـو موقف الاستعمـار ، واعداء مصـر ، تاريخيا : العمل بكل السبل والوسائل لحصر التأثير المصري داخل حدودها الجغرافية ، حتى يذبل هذا التأثير وتدركه عوامل الفناء .. وقطع الروابط بين مصر وبين جاراتها ، كي

يسهل ازدراد اولئك الجارات واحدة بعد واحدة ، وبعد ذلك لا يصعب علـى الحلـق الاستعماري ازدراد الكيان المصري والتخلص من مخاطره المحدقة بأطماع الغزاة والمستعمرين .

ومن هنا كان تشجيع الاستعمار الانجليزي ، منذ ان احتل مصر ، لذلك التيار الذي اخذ ينمو في صفوف الحركة الوطنية ، تيار المعتدلين الذين كان شعارهم : مصر فقط .. والذين رفضوا ربط مصر بالدائرة العربيـة ، لانهـم كانوا يؤمنون بالقومية المصرية فقط ، كما رفضـوا ربط مصر بالدائرة الاسلامية ، عن طريـق مناصبة شعـار الجـامعة الاسلامية وانصاره العداء ..

لقد كان هذا التيار الذي تمثل في (حزب الامة) ثـم (الاحرار الدستوريين) يلقـى التشجيع مـن الاستعمـار الانجليزي ، في هذه القضية بالذات ... وكانت هذه القضية هي رسالة الفئات والدوائر التي أسفرت عن وجهها في نصرتها لسلطة الاحتلال .. مثل تيار (المقطم) وكـل الذين وضعوا انفسهم في خدمة المستعمر الجديد ..

كانوا يريدون ـ بصرف النظر عن النوايا والمنطلقات ـ ان يجعلوا من القومية المصرية ـ وهي حقيقة موضوعية ـ البديل والغناء عن اية ارتباطات اخرى بأية دائرة سياسية او قومية خارج الحدود المصرية ، وتوهموا ـ او توهم البعض ـ ان في عزلة مصر عناصر قوتها .. وكان الاستعمار يدرك ـ ويدرك معه بعض دعاة هذا التيار ـ ان في هذه العزلة بداية النهاية للقوة والطاقة التي جعلت هذا الوطن يستعصي، تاريخيا ، على الخضوع لمحاولات الغزاة والطامعين ..

* * *

وعندما بدأ مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ م) فـي ايقاظ الحس الوطني المصري كي يقاوم الاحتلال الانجليزي

في العقد الاخير من القرن الماضي ، لم يكن شعار القومية العربية مطروحا في مصر ، ولم تكن العروبة ، كدائرة سياسية تلي الدائرة المصرية الوطنية ، قد تبلورت معالمها بعد .. فهذه القومية العربية ، ودائرتها السياسية لم تتبلور حقيقة الا على يد المفكر العربي عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ – ١٩٠٢ م) عندما اصدر كتابه (أم القرى) في بداية القرن العشرين .. كما ان شعار العروبة والذاتية العربية كان يغضب يومئذ العثمانيين ، وكانوا – بعد القوة الوطنية المصرية الذاتية – القوة الاولى المناوئة لاحتلال الانجليز لمصر ..

ومن ثم .. فلقد كان شعار الجامعة الاسلامية ، كدائرة سياسية تضامنية تجمع الشعوب الاسلامية المستعمرة أو المهددة بالاستعمار ، كان هذا الشعار وتلك الدائرة هي التعبير ، بالنسبة للحركة الوطنية المصرية ، عن طوق النجاة من العزلة التي يعمل الاستعمار كي يقضي بها على مصر ، وكان المناضلون تحت اعلام الجامعة الاسلامية ، وبالذات من منطلق الوطنية المصرية وفي سبيل الاستقلال التام لمصر – كما كان الحال عند مصطفى كامل – كانوا هم المدركون بوعي تاريخي اصيل الطريق الطبيعي لقوة مصر ونهضتها والسبيل الاوحد لخلاصها من نير الاستعمار ..

من هذه الزاوية يجب أن ننظر لشعار الجامعة الاسلامية ، على عهد مصطفى كامل ، والى موقف القوى الوطنية وغير الوطنية بمصر من هذا الشعار ... أي الشعارين كان يمنح مصر القوة في نضالها ضد الاستعمار : الانكفاء على الذات تحت شعار القومية المصرية ؟؟ ام الربط السياسي والادبي واقامة التضامن بين الامة المصرية ودائرة الشعوب الاسلامية ، التي تضم العرب بين جنباتها ؟؟..

ومن هذه الزاوية ، بالتالي ، يجب ان ننظر لمفهوم

مصطفى كامل عن الجامعة الاسلامية ، ورفعه لشعاراتها ، ونضاله تحت اعلامها . .

وهو الامر الذي نرجو ان نكون قد وفقنا لدراسته فيما نقدم هنا من صفحات . . والله ولي التوفيق .

القاهرة ــ اكتوبر سنة ١٩٧٤

محمد عمارة

بطـاقة حيـاة ..

انني اجد حياتي في هذه العقيدة
الوطنية . وبغـير هـذه الشعلة
الوطنية لا استطيع الحياة ...
انني لا اترك لحظة تمر من حياتي
دون ان اغرس حب مصرنا العزيزة
في قلوب مواطني ...
ان روحي تتغذى من حب الوطن ،
وبغيره لا استطيع الحياة .. وما
دامت هذه الشعلة الوطنية تغذيني
وتؤازرني فاني لا اهاب شيئا ولا
احدا في الوجود .]

مصطفى كامل

هذه الصفحات ليست ترجمة لحياة الزعيم الفذ مصطفى كامل ، وانما هي محاولة لتكثيف احداث هذه الحياة وتركيزها في عدد من النقاط والحلقات التي تسلم احداها الى الاخرى ، بحيث تعطي في النهاية سطور « بطاقة حياة » لتلك الشخصية التي كان وجودها وفكرها ونضالها نقطة تحول في حياة « الوطنية المصرية » ، واستجابة واعية وتلقائية ، في ذات الوقت ، لروح المقاومة الكامنة في احشاء هذه الامة ضد غزاتها والطامعين فيها على مر العصور ..

وسطور هذه « البطاقة » وصفحاتها تتتبع حياة هذا الزعيم الوطني والقومي لتركز احداثها الهامة ، وتطوراتها ذات الدلالة ، وانجازاتها في ميدان بعث هذه الامة كي تبحث عن حقها المقدس في الحرية ، وتناضل لتحرير ترابها الوطني من عار الاحتلال .

اما صفحات هذه البطاقة فانها ثلاث :

١ ـ **النشأة والطفولة** ... حتى سن السادسة من عمره .. (١٨٧٤ ـ ١٨٧٩ م) .

٢ ـ **التلمذة وطلب العلم** ... حتى سن العشرين .. (١٨٨٠ ـ ١٨٩٤ م) .

٣ ـ **الجهاد الوطني والقومي** ... حتى انتقاله الى الرفيق الاعلى في ريعان الشباب .. (١٨٩٤ ـ ١٩٠٨) .

« ١ »

* في حي من الاحياء الوطنية بمدينة القاهرة ، هو حي « الصليبة » ، بقسم « الخليفة » ، ولد مصطفى كامل في ١٤ اغسطس سنة ١٨٧٤ م (الموافق اول رجب سنة ١٢٩١ هـ) .. لاسرة مصرية متوسطة الحال ، ماديا وادبيا ..

فوالده ــ علي « افندي » محمد ــ كان ضابطا مهندسا بالجيش المصري ، جاء الى القاهرة ، بحكم عمله ووظيفته ، من قرية « كتامة » احدى قرى مركز طنطا ، عاصمة الغربية .. وكان والده ــ جد مصطفى كامل ــ احد تجار تلك القرية ..

اما والدته ــ والدة مصطفى ــ فهي السيدة « حفيظة » كريمة « اليوزباشي » محمد « افندي » فهمي . من شارع الكومي ، بجهة المحجر ، بالقاهرة .

* ولقد ولد لهذه الاسرة ــ التي وصلت الى طبقة « الافندية » بمجتمع القاهرة يومئذ ــ غير مصطفى ، اخوته : علي فهمي ، وعائشة ، وحسن حسني ، ونفيسة .

* وفي سن مبكرة من طفولته احضر له والده احد حفاظ القرآن الكريم ــ (فقيه) ــ كي يشرف على تعليمه ، بالمنزل ، مبادىء القراءة والكتابة ، ويلقنه حفظ آيات من القرآن الكريم .

« ٢ »

* بعد ان اتم السادسة من عمره ــ (١٨٨٠م) ــ ادخله والده « مدرسة ام عباس » ــ والدة عباس الاول ــ بحي « الصليبة » .. ولكنه رغب في تركها بعد سنتين احتجاجا على اهانة احد المدرسين له ، فألحقه والده « بمدرسة السيدة زينب » الابتدائية ..

وفي سنة ١٨٨٦ م (٢٣ جمادى الثاني سنة ١٣٠٣ هـ) توفي والده، فانتقلت كفالته الى عمه حسين واصف (باشا)، كما انتقل مع والدته واخوته الى منزل جده لامه ، ومن ثم انتقل من « مدرسة السيدة زينب » الى « مدرسة القربية » القريبة من منزل جده لامه .. ومن هذه المدرسة حصل على شهادة الابتدائية سنة ١٨٨٧ م .

* وفي نفس العام — (سنة ١٨٨٧) — التحق بالتعليم الثانوي — (التجهيزي) — فدخل « المدرسة الخديوية » .. وفي هذه المرحلة من تعليمه بدأ يلفت الانظار الى نبوغه المبكر، وخاصة الى ملكات الخطابة والفصاحة وتوقد الذهن والشخصية القيادية وحب مصر حبا غير مألوف فيمن هم في مثل سنه الصغير ..

وفي احدى زيارات ناظر — (وزير) — المعارف علي باشا مبارك للمدرسة لفت انتباه الوزير اليه ، فأعجب ببلاغته وقدراته الخطابية ، فتنبأ له بمستقبل متميز ، وقال له عبارته الشهيرة : « انت امرؤ القيس » ؟!

* وفي سنة ١٨٩٠ م — وهو في السادسة عشرة من عمره — فكر في انشاء تنظيم وطني ادبي يعمل في سبيل رفعة مصر وتحريرها ، وتحدث الى اخيه علي فهمي في خطاب مؤرخ في ١٢ يوليو سنة ١٨٩٠ م عن اعتزامه انشاء (جمعية احياء الوطن) ؟! ..

ثم اسس في نفس العام (جمعية الصليبة الادبية) التي ضمت سبعين عضوا من تلامذة المدرسة الخديوية في الاشهر الثلاثة الاولى من تأسيسها .. واخذت هذه الجمعية تمارس نشاطها « الادبي — الوطني » ، كما اخذ مصطفى كامل يمارس نشاطه الخطابي فيها مساء كل يوم جمعة ، وكان موضوع خطبته الاولى فيها عن (فضل الجمعيات في العالم) ،

ودور التنظيمات في نهضات الامم والشعوب !.

والى جانب نشاطه فـي (جمعيـة الصليبة الادبية) اشترك في النشاط الادبي الذي كانت تقوم به (جمعية الاعتدال) ، وكانت تعقد اجتماعاتها المنتظمة في « مدرسة الامريكان » .

* وفي الثامنة عشرة من عمره ـ (سنة ١٨٩٢م) ـ وكان لا يزال بالمدرسة الخديوية التجهيزية ـ (الثانوية) ـ تعرف بصاحب جريدة « الاهرام » بشارة باشا تقلا ـ وكانت الاهرام تصدر وقتذاك بالاسكندرية ـ وكان تعرف مصطفى كامل ببشارة باشا تقلا بواسطة صديقه شاعر القطرين خليل بك مطران .. وبدأ في هذه السن المبكرة ينشر مقالاته بالاهرام . كما اخذ ينشر المقالات في « المؤيد » ، صحيفة الشيخ علي يوسف منذ سنة ١٨٩٢ م .

* وفي الثامنة عشرة من عمره ـ (سنة ١٨٩٢م) ـ وكان الثانوية ـ (البكالوريا) ـ ودخل مدرسة الحقوق الخديوية ـ (كلية الحقوق) ـ في اكتوبر من نفس العام . وكانت رغبته في دراسة الحقوق نابعة من رغبته في التفرغ لقضية الوطن الكبرى ، « لانها مدرسة الكتابة والخطابة ، ومعرفة حقوق الافراد والامم » ، كما وصفها في خطابه الـى اخيه علي فهمي .

وفي اكتوبر سنة ١٨٩٢ م انتقل الى السنة الثـانية بمدرسة الحقوق الخديوية ، والتحق كذلك بمدرسة الحقوق الفرنسية ، كي يستفيد من ميزاتها فـي المنهـج وارتفاع المستوى في اللغة الفرنسية ، وجمع بين الدراسة والتحصيل للمدرستين معا .

* وفي سنة ١٨٩٢ م زار الخديو عباس الثاني ـ وكان حديث عهد بتولي عرش الخديوية ـ مدرسة الحقوق، فشارك

مصطفى كامل في حفل استقباله بأن انشد قصيدة شعر من نظمه حياه بها وتحدث فيها عن أمل الوطن في الخديو الجديد ..

* وفي يناير سنة ١٨٩٣ م حدثت ازمة بين الخديو الشاب واللورد كرومر ، المعتمد البريطاني بمصر ، عندما اراد الخديو التخلص من حكومة مصطفى فهمي باشا ، التي كانت اداة طيعة في يد سلطات الاحتلال ، فاعترض كرومر وهدد الخديو وانذره .. فانخرطت مدرسة الحقوق في مظاهرة وطنية تؤيد الخديو ضد سلطات الاحتلال ، وكان مصطفى كامل في طليعة المتظاهرين ..

* وفي التاسعة عشرة من عمره - اوائل سنة ١٨٩٣ م - اخرج باكورة انتاجه ، عندما الف رسالة عنوانها (اعجب ما كان في الرق عند الرومان) ؟!

* وفي ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ م - (أول شعبان سنة ١٣١٠ هـ) - اصدر اول مجلة يصدرها طالب مصري ، اذ صدر العدد الاول من مجلته (المدرسة) واتخذ لها شعارا يربط بين الحب للمدرسة والاسرة والوطن - **(حبك مدرستك : حبك اهلك ووطنك) ؟!** .. ولقد استقبلت مجلة (المدرسة) استقبالا طيبا ، حتى لقد رحب بصدورها الزعيم الوطني عبدالله نديم في مجلته (الاستاذ) بعدد ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٣ م .

* في يوم الجمعة ٢٣ يونيو سنة ١٨٩٣ م غادر مصر الى باريس كي يؤدي امتحان السنة الاولى بمدرسة الحقوق الفرنسية ، وهناك اخذ يتعرف على الحياة العامة لفرنسا ، وبالذات جوانبها السياسية والادبية الجادة ، ومن باريس كتب الى اخيه علي فهمي رسالة يقول فيها : « لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين ويونانيين ويابانيين ، فرأيتهم جميعا منكبين

على العلم ، **ولكنني اؤكد لك ان المصري اقواهم عارضة ، واعلاهم ذكاء ، ولا ينقصه الا الارادة التي هي أس النجاح !.. » .**

وبعد ان ادى امتحانه بنجاح عاد الى مصر في اغسطس سنة ١٨٩٣ م .

* وكان بين زملاء مصطفى كامل في مدرسة الحقوق صديقه « فؤاد سليم » ، وكان والده « لطيف باشا سليم » احد الذين شاركوا في الثورة العرابية ، ولقد عمل على تكوين هيئة تضم صفوف المعارضة للاحتلال في سنة ١٨٩٣ م ، فانضم مصطفى كامل الى هيئة المعارضة هذه .. وكان يومئذ في التاسعة عشرة من عمره ..

* وفي نفس العام — (سنة ١٨٩٣ م) — اخرج في مدرسة الحقوق رواية (فتح الاندلس) التي حملت دروسا في الوطنية ، وتذكيرا بمجد العرب وبطولاتهم وعشقهم للحرية والفداء ، واستطاع أن يتخذ من التراث التاريخي سبيلا لبث الافكار الوطنية والاخلاقيات النظيفة التي اراد بثها في الطلاب والمشاهدين ..

* وفي صيف سنة ١٨٩٤ م سافر الى باريس ، للمرة الثانية ، حيث ادى امتحان السنة الثانية بمدرسة الحقوق الفرنسية ، وبعد زيارة باريس زار بروكسل ، ومن هناك كتب ست مقالات نشرت بجريدة « الاهرام » .. ثم عاد الى مصر في سبتمبر من نفس العام ..

* وفي أكتوبر من نفس العام — (سنة ١٨٩٤ م) — عاد ثالثة الى باريس ، وكان قد اعتزم تأدية امتحان السنة الثالثة بمدرسة الحقوق الفرنسية ، كي يحصل على شهادتها « الليسانس » في نفس العام الذي ادى فيه امتحان السنة الثانية .. ولما اعترضت كلية باريس على ادائه امتحانين في

عام واحد ، توسط له بعض اساتذته ، تقديرا منهم لنبوغه وتميزه ، فأدى امتحان « الليسانس » في كلية حقوق « تولوز » حيث حصل على شهادة « الليسانس » في نوفمبر سنة ١٨٩٤ م ، وسنه يومئذ عشرون عاما ..

* وفي احدى الصحف الفرنسية التي تصدر في « تولوز » — (جازيت دي تولوز) — نشر حديثا وطنيا اجراه معه محرر الصحيفة ..

ثم عاد الى وطنه ، مصر في ديسمبر سنة ١٨٩٤ م .

« ٣ »

* منذ اللحظة الاولى التي عاد فيها مصطفى كامل الى مصر ، بعد حصوله على « الليسانس » تفرغ للمحاماة ، لانه كان قد قرر منذ وقت مبكر الا ينخرط في سلك الوظائف الحكومية .. وفي المحاماة كانت لديه قضية واحدة هي قضية مصر وحريتها واستقلالها ، فلم يحدث ان ترافع في قضية فردية واحدة ..

وفي ٤ فبراير سنة ١٨٩٥ م كتب عن آماله في المستقبل الى احد اصدقائه يقول : **« ان لي آمالا تخالج فؤادي ليلا ونهارا ، اعتقد انها ان تحققت انقذت الوطن من الخطر ، واعادته الى منشئه الاول واحسن ، وسوف تعلمون كنه هذه الآمال » ؟!**

وفي مصر اخذ يدرس اصول القضية الوطنية ، وتاريخ الصراع بين مصر وبين الاستعمار عامة ، والاستعمار الانجليزي على وجه الخصوص ، ومواقف الدول الاوروبية من المسألة الشرقية ، وقضية الاحتلال الانجليزي لمصر بالذات .. وكان قد احضر معه من باريس صندوقين مملوئين بالكتب المؤلفة

في المسألة المصرية وسياسة الامم ، وفيهـا مجموعة مـن مذكرات كبار الساسة الاوروبيين .. احضر بعضها من مكتبة باريس وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسـية ..

* وكان اول ما نشره « بالاهرام » بعد عودته من باريس الحديث الذي اجراه ، على الباخرة التي عادت به الى مصر ، مع شقيق اللورد كرومر « الكولونيل بارنج » ، الذي تساءل عن امكانية حصول مصر على الاستقلال وهي لا نصير لها في السعي الى الاستقلال ؟! ... وفي هذا الحديث رد مصطفى كامل على تساؤل « الكولونيل بارنج » قائلا : ان « لنا اوروبا بأسرها ، التي تناديها صوالحها العديدة بأن تنصرنا بنصرة هذه الصوالح التي سعيتم من يوم احتلالكم البلاد في تقويض اركانها . على انها ان لم تنصرنا **فان لنا من حقنا واتحادنا ، بوصف اننا امة عظيمة ذات حضارة قائمة ماثورة ، ما نبلغ بهما الى ما نصبو من حرية واستقلال ! »** .

* وبعد العودة الى مصر ، والاستقرار بها ، انتقل مصطفى كامل بعائلته الى مسكن جديد بعمارة خليل اغا خلف قسم المنشية .

* وكان قد تعرف ، وهو بباريس ، بالنائب الفرنسي عليهم قد اخذت تزداد بمصر حتى صارت ظاهرة ملحوظة ، فأنشأ كرومر « المحكمة المخصوصة » كي تحاكم ، بالقوانين الاستثنائية ، المصريين الذين يعتدون على جنود الاحتلال .. فنشر مصطفى كامل في « الاهرام » هجوما على انشاء هذه المحكمة الاستثنائية ضمنه مقالا عنوانه (صواعق الاحتلال) في ٤ مارس سنة ١٨٩٥ م .

* وكان قد تعرف ، وهو بباريس ، بالنائب الفرنسي « فرانسوا دلونكل » ، وهو احد الفرنسيين المهتمين بالمسألة المصرية ، وعندما زار هذا النائب مصر كان مصطفى كامل في

استقباله بالاسكندرية في ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ م ومعه عدد من الوطنيين وقنصل فرنسا بالاسكندرية ونخبة من قادة الجالية الفرنسية في مصر .. وكانت مدة زيارة « فرانسوا دلونكل » لمصر – عشرين يوما – فرصة ذهبية صحب فيها مصطفى كامل هذا الضيف الفرنسي ، فألقيت الخطب الوطنية ، ونشرت الاحاديث عن القضية المصرية ، وكان ختام هذه الزيارة ذلك الحفل الذي اقيم بفندق « نيو أوتيل » حيث القى مصطفى كامل خطابا ، بالفرنسية ، عن قضية مصر ، شكر فيه النائب الفرنسي على انتصاره لقضيتها ومطالبته بجلاء الانجليز عنها .

* * *

*وفي اول مايو سنة ١٨٩٥ م بدأ رحلته الصيفية الى اوروبا – وهي الرحلة التي اخذت تتكرر كل عام – بهدف الدفاع عن قضية مصر في المحافل الاوروبية ، والدعاية لقضية استقلالها ، وتجميع قوى الضغط الاوروبية ، التي تتناقض مصالحها مع انفراد انجلترا باحتلال مصر ، كي تطلب من انجلترا الجلاء عن وادي النيل ..

وفي يونيو سنة ١٨٩٥ م طبع ، بالفرنسية ، منشورا ووزعه على اعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية ، ضمنه نداء الى فرنسا تتقدم به مصر ، التي رسمت في المنشور مقيدة ترسف في اغلالها ، وهي تطلب عون فرنسا على نيل حريتها ، كما اعانت من قبل امما اخرى على التحرر ، منها مثلا : امريكا وايطاليا واليونان وبلجيكا .. ولقد احدث هذا النداء المبتكر دويا هائلا في اوساط الجمعية الوطنية الفرنسية ، واستقبله لذلك رئيسها المسيو « بريسون » ..

وفي الشهر التالي – يوليو – نشرت له صحيفة

(الجورنال) الباريسية حديثا سياسيا عن المسألة المصرية ، وتناولته بالتعليق صحيفة (الاكلير) ..

وفي « تولوز » القى في ٤ يوليو اولى خطبه السياسية، وذلك في اجتماع ضم نخبة من الاساتذة والكتاب والصحفيين والنواب وقادة الرأي العام في « تولوز » ..

* وفي نفس الشهر — يوليو — سافر الى فينا ، حيث كتبت عنه ولفتت اليه الانظار عدة صحف تصدر فيها ، من بينها صحيفة (اكسترا بلاط) و (الستاندرد) ، وتناولت ، بمناسبة زيارته ، الحديث عن القضية المصرية .

* ثم عاد الى باريس ثانية في ٨ اغسطس سنة ١٨٩٥م حيث نشر بها في ١٤ اغسطس رسالته عن (اخطار الاحتلال البريطاني) ..

* وفي سبتمبر من نفس العام تعرف على الكاتبة والاديبة الفرنسية الشهيرة مدام جولييت آدم ، التي تبنت قضية مصر ، كما تبنت مصطفى كامل ونضاله ، فقدمته الى الاوساط السياسية والادبية والصحفية في باريس ، وفتحت له الكثير من نوافذ التأثير الفكري والاعلامي بفرنسا ، كما فتحت له صفحات مجلتها (لا نوفل ريفو) — « المجلة الحديثة » — كي ينشر فيها الاحاديث والمقالات ..

وفي ٩ سبتمبر نشرت له صحيفة (الاكلير) حديثا حمل فيه على عزم الانجليز الغاء البعثة التعليمية المصرية بفرنسا.. كما نشرت له صحيفة (الجولو) و (لانوفل ريفو) الاحاديث والمقالات عن المسألة المصرية .

وفي الجمعية الجغرافية بباريس القى خطابا عن (الاحتلال الانجليزي في مصر) في ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٥ م .

ومن باريس ايضا ارسل الى زعيم حزب الاحـرار الانجليزي « جلادستون » في ٢ يناير سنة ١٨٩٦ رسالـة يذكره بوعوده وتصريحاته عن ان زمن الجلاء عن مصر قد آن اوانه .. ورد عليه « جلادستون » .. وكانت هذه المراسلات موضع تعليـق الصحـافة الفرنسية ، وخـاصة (الاكلير) و (الفيجارو) ..

* ثم اختتم هذه الرحلة بالعودة الى مصر ، فوصل الاسكندرية في ١٤ يناير سنة ١٨٩٦ م .

* * *

* وفي الاسكندرية القى ، بالمسرح العباسي ، في ٣ مارس سنة ١٨٩٦ م ، اولى خطبه الوطنية الجامعة ، فكانت فاتحة نشاط وطني كبير ، واحدثت صدى واسعا في الدوائر القومية والصحافة المصرية والاجنبية ..

* وكانت سلطات الاحتلال قد اخذت تشعر بالمتاعب من نشاط مصطفى كامل الوطني ، سواء في مصر او فـي اوروبا ، فبدأت بواكير غضبها عليه في صورة ذلك الاضطهاد الذي صبته على شقيقه علي فهمي كامل ، وكان ضابطا في الجيش المصري بالسودان .. حيث تعرض للمحاكمة .. والسجن .. والتجريد من رتبته .. والعزل .. ورفضت استقالته .. واجبر على الخدمة بالسودان كجندي عادي بعد ان كان ضابطا .. ولما قابل مصطفى كامل الخديو كي يطلب منه التدخل في الامر غضب كرومر لاستقبال الخديو له .. واخيرا نجحت الجهود في اصدار عفو من الخديو عن علي فهمي في شهر اغسطس سنة ١٨٩٦ م عطل اللورد كتشنر ، سردار الجيش ، تنفيذه حتى شهر اكتوبر ؟!

* وفي ١٣ ابريل سنة ١٨٩٦ م القى ، بالفرنسية ، في

مسرح زيزينيا ، بالاسكندرية ، خطابا جامعا امام عدة آلاف من ممثلي الجاليات الاجنبية وقادة الرأي فيها ونخبة من المثقفين المصريين ، وكان خطابه هذا اول خطاب يلقيه مصري في اجتماع عام ، بلغة اوروبية ، منذ الاحتلال الانجليزي لمصر !..

وفي مايو من نفس العام جمع الكاتب والصحفي والوطني محمد بك ابو السعود ـ صاحب جريدة منفيس ـ مجموعة الخطب والرسائل والمقالات التي انشأها مصطفى كامل من مايو سنة ١٨٩٥ حتى مايو سنة ١٨٩٦ وطبعها في كتاب جعل عنوانه (مصر والاحتلال الانجليزي) فكان اول سجل وطني ينشر بمصر ضد الاحتلال ..

* * *

* وفي صيف سنة ١٨٩٦ م قام برحلة سياسية ثانية الى اوروبا ، فوصل باريس في اول اغسطس ، حيث نشرت له صحيفة (ليبر بارول) الفرنسية حديثا عن الحركة الوطنية المصرية في ٧ سبتمبر سنة ١٨٩٦ م . كما نشرت له صحيفة (الاكلير) حديثا عن المسالة المصرية في ١٥ سبتمبر بمناسبة ذكرى اليوم الذي احتل الانجليز فيه القاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م .

ومن باريس كتب رسالة الى زعيم حزب الاحرار الانجليزي « جلادستون » بتاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٦ م يطلب منه العمل على تأييد جلاء بريطانيا عن مصر ، ونصرة القضية المصرية مثلما يناصر قضية الارمن ضد العثمانيين .. وكانت مراسلاته هذه موضع تعليق صحيفة (الديبا) الفرنسية وغيرها من الصحف .

* ومن باريس سافر الى برلين فوصلها في اول اكتوبر

سنة ١٨٩٦ م ، فكان وصوله مناسبة لاثارة القضية المصرية في الصحافة الالمانية ، وخاصة صحيفتي (برلينر تاجبلاط) و (ذي بوست) اللتين اجريتا معه الاحاديث ..

* ومن برلين انتقل الى فينا فوصلها في ١٩ اكتوبر سنة ١٨٩٦ م ، وفيها التقى بعدد كبير من الكتاب والصحفيين والساسة والنواب ، ونشر في صحيفة (اكتسر تاجبلاط) حديثا عن المسألة المصرية .

* ومن فينا انتقل الى الآستانة ، في اول زيارة له لعاصمة الدولة العثمانية ، فوصلها في ٢٧ اكتوبر سنة ١٨٩٦ م ، واستقبله السلطان عبد الحميد الثاني ، وعبر عن اعجابه بنشاطه المناهض للاستعمار الانجليزي ، وابدى رغبته في منحه رتبة ونيشانا ، ولكن مصطفى كامل اعتذر حتى لا يتهمه خصومه بالعمل لحساب السلطان عبد الحميد ، وان كان الكثيرون من اصدقائه قد لاموه على اعتذاره ، وحدثوه عن الرصيد الادبي الذي يضاف له ولنضاله اذا هو حمل مثل هذه الالقاب والنياشين .

وفي زيارته هذه للآستانة اقام حتى ١١ فبراير ، وكانت فرصة لعديد من اللقاءات الصحفية مع عدد من مراسلي الصحف الاوروبية هناك .. فصحيفة (فرنكفورتر تركورييه) الالمانية نشرت له حديثا بتاريخ ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ م .. وصحيفة (الاندبندنس بلج) البلجيكية نشرت له حديثا بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ م .. كما نشرت له صحيفة (النيويورك هرالد) الامريكية حديثا ادلى به الى مراسلها هناك ..

ومن الآستانة بعث بعدة رسائل الى عدد من الساسة والنواب في اوروبا ، من بينهم الدكتور «هفمان زنيفر» رئيس

حزب اليسار — (الشمال) — في البرلمان الالماني ، والنائب الايطالي اليساري « كاني فورشللا » ..

* ثم عاد الى مصر من رحلته هذه في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٦ م ، فاستقبل عند وصوله استقبالا حافلا من اصدقائه والمعجبين بنشاطه الوطني الذي كانت اصداؤه الاوروبية تصل مصر وتنعكس في صحافتها ..

* * *

* وعقب عودته وجد مكيدة بريطانية اراد المستعمرون بها اسكات صوته عن طريق تجنيده في الجيش ، بدعوى انه قد استدعي للتجنيد ، ومر الموعد القانوني للحضور او ابداء مبرر الاعفاء من التجنيد ، دون ان يرد على الاستدعاء — ولكن وطنية « شيخ الحارة » الذي ادرك مرامي المكيدة انقذت مصطفى كامل ، فلقد اقر « شيخ الحارة » بأنه قد احتفظ بطالب الاستدعاء دون ان يتسلمه مصطفى كامل ، الذي كان غائبا في اوروبا ، او احد من ذويه !!.. وكانت مناسبة تناولتها الصحافة في مصر والخارج بالنقد للاحتلال والتعليق على حالة مصر تحت حكم الانجليز .

* وفي يناير سنة ١٨٩٧ م مرض مصطفى كامل ، بسبب الاجهاد الذي اصابه في العام الماضي ، فأمضى اسبوعين في الاستشفاء بضاحية حلوان ، عاد بعدهما للنشاط الوطني من جديد ..

* وفي ٢٧ يناير سنة ١٨٩٧ م نشرت له صحيفة (برلينر تاجبلاط) الالمانية نداء موجها من الحركة الوطنية المصرية الى الامة الالمانية كي تناصر مصر في نضالها ضد الاحتلال الانجليزي .

* وفي ٣ مارس سنة ١٨٩٧ م بدأ رحلة سياسية

جديدة الى اوروبا ، وكان في وداعه الصحفي الامريكي « جولدنيك » ، الذي حصل منه على حديث سياسي نشرته الصحيفة التي يراسلها ..

ومن الاسكندرية وصل الى تريستا ، ومنها الى فينا ، حيث دار بينه وبين السياسي وعضو البرلمان النمسوي الدكتور « رزنر » حديث عن المسألة المصرية ، نشرته الصحف وتناقلته وكالات الانباء .

وفي ٢٤ مارس سنة ١٨٩٧ م دعا الى وليمة كبرى في فندق « متروبول » حضرها عدد كبير من الساسة والكتاب والصحفيين والنواب ، حيث خطب فيهم عن قضية مصر ..

* ومن فينا سافر الى بودابست ، عاصمة المجر ، في ٢٦ مارس سنة ١٨٩٧ م ، فرحبت به الصحف المجرية واثارت القضية المصرية على صفحاتها بمناسبة وجوده في بلادهم ..

* ومن بودابست ذهب الى برلين في ٥ ابريل سنة ١٨٩٧ م ، ونشرت له صحيفة (برلنرتا جبلاط) حديثا وطنيا في ٧ ابريل .. والتقى هناك بعديد من السياسيين والنواب والكتاب والصحفيين ، كما نشرت له صحيفة (برلنر بوست نخرختن) شرحا وافيا لقضية مصر ونضالها في سبيل الاستقلال ..

* وبعد برلين ذهب الى باريس في ابريل سنة ١٨٩٧ م .. وكانت صحافتها ودوائر الرأي والسياسة فيها تشن الحملات ضد العثمانيين بسبب الحرب الناشبة بينهم وبين اليونان ، .. ولقد امتد نقد الفرنسيين للعثمانيين الى نقدهم لمصر وحركتها الوطنية التي كانت تتعاطف مع العثمانيين وتجمع الاكتتابات للجيش العثماني ، فتصدى مصطفى كامل للدفاع عن موقف الحركة الوطنية المصرية ، وعن ضرورة تعاطفها مع الذين يناصرون حقها في الجلاء .. حتى استطاع

ان يحول التيار الفرنسي الى التعاطف ثانية مع الحركة الوطنية المصرية ..

* ثم عاد الى ارض الوطن من رحلته هذه ، فوصل مصر في ١٢ مايو سنة ١٨٩٧ م .

* * *

* ولقد صادفت عودة مصطفى كامل الى مصر حلول عيد الاضحى المبارك وتحقيق الجيش العثماني الانتصار في حربه باليونان ، فأبرق مصطفى كامل الى السلطان عبد الحميد مهنئا بالعيد والنصر .. كما طلب في برقيته هذه ان يشترط السلطان لتحقيق مطلب اوروبا الجلاء العثماني عن اليونان ان يتم الجلاء الانجليزي عن مصر !..

ولقد شرع في حملة جماهيرية كي يكسب الرأي العام لموقفه هذا ، وحرص على كسب تأييد الجاليات الاجنبية في مصر لهذا الموقف ، فخطب في عدة آلاف بمسرح زيزينيا بالاسكندرية في ٧ يونيو سنة ١٨٩٧ م ، فشرح موقف الحركة الوطنية الرامي الى الاستفادة من ازمة اليونان لتحقيق الجلاء عن مصر ، وقرر المجتمعون قرارا يؤيد هذا الموقف ، وايده كذلك ممثلو الجاليات الاجنبية بالاسكندرية ، ووجد هذا القرار صدى طيبا لدى اصدقاء الحركة الوطنية المصرية بالخارج .

* وفي ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٧ م قام مصطفى كامل برحلة سياسية جديدة ، فسافر الى الآستانة حيث وصلها في ٢٩ يونيو ، وادلى فيها بعدة احاديث لمراسلي الصحف الاجنبية هناك ..

* ومن الآستانة سافر الى بودابست فوصلها في ٧

يوليو سنة ١٨٩٧ م ، ومنها ارسل في ١١ يوليو خطابا الى رئيس وزراء انجلترا اللورد « سلسبري » ، يذكره بوعود انجلترا بالجلاء عن مصر، ويطلب منه تنفيذ تلك الوعود، وذلك في مناسبة ذكرى ضرب الاسطول البريطاني لمدينة الاسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ م .

كما نشرت لـه الصحف المجرية (يسترلويد) و (ماجيا نوك لابجا) الاحاديث عن المسألة المصرية ، ونشرت كذلك صحيفة (نيويورك هرالد) حديثا عن جهاده في سبيل قضية بلاده .

* ومن بودابست سافر الى فينا في ٢٣ يوليو سنة ١٨٩٧ م ، واستأنف فيها نشاطه الوطني والدعائي للقضية المصرية ..

* ومن فينا سافر الى باريس في اغسطس سنة ١٨٩٧ م ، فنشرت له صحف (الاكلير) و (لا بيه) و (الدبيش كولونيال) عدة احاديث ومقالات عن المسألة المصرية .

وفي ١٤ سبتمبر دعا الى اجتماع سياسي حضره المصريون والشرقيون المقيمون بباريس ، والقى فيه خطابا وطنيا بمناسبة ذكرى اليوم الذي احتل فيه الانجليز القاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢م .

* ومن باريس سافر الى برلين ... ثم عاد ثانية الى باريس ، وتصدى للحملات التي حاول اصحابها اظهار الحركة الوطنية المصرية بمظهر العمالة لحساب العثمانيين .

* ثم عاد الى مصر من رحلته هذه ، فوصلها في ١٠ اكتوبر سنة ١٨٩٧ م .

* * *

* وفي ٨ يناير سنة ١٨٩٨ م القى خطابا وطنيا جامعا

بمسرح الازبكية الايطالي بمناسبة عيد جلوس الخديوي عباس الثاني على عرش الخديوية المصرية .

كما نشر مقالا في صحيفة (لوريان) الفرنسية في ٣ فبراير سنة ١٨٩٨ م ينفي فيه عن نفسه وحركته تهمة الدعوة الى الثورة ، وهي تهمة كانت الصحيفة قد وجهتها اليه .. فكتب ان طريقه هو الاعتدال والاصرار على تحقيق الاستقلال لمصر دون عنف .

وفي ١٥ مارس سنة ١٨٩٨ م نشرت لـه صحيفـة (لاكور ييري) الايطالية حديثا عن المسألة المصرية .

* وفي ابريل سنـة ١٨٩٨ م نشر كتـابه (المسألـة الشرقية) وتناول فيه تاريخ هذه القضية وتطوراتها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ..

* * *

* وفي ٢٤ يونيو سنة ١٨٩٨ م قام برحلة سياسية جديدة .. فزار باريس ، ومنها كتب الى رئيس الـوزراء الانجليزي اللورد « سلسبري » يرد على تصريحه الذي قال فيه ان انجلترا قد فتحت مصر بالسيف ..

كما نشر عددا من المقالات والاحاديث الصحفية فـي صحيفة (الاكلير) وغيرها . وفي سبتمبر سنة ١٨٩٨ م القى بباريس خطبة سياسية جامعة ..

* ثم عاد الى مصر في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٩٨ م .

* * *

* وفي صيف سنة ١٨٩٨ م وقعت الحادثة المعروفة «بحادثة فاشودة» .. وفاشودة هذه قرية سودانية ، احتلتها

في ١٠ يوليو سنة ١٨٩٨ م قوة فرنسية بقيادة الكابتن « مارشان » ، وكانت فرنسا تستهدف باحتلالها مناوأة الاحتلال الانجليزي لمصر ، وفتح ملف القضية المصرية من جديد .. فتقدمت قوة مصرية يقودها السردار كتشنر لمواجهة القوة الفرنسية ، فوصلت فاشودة في سبتمبر سنة ١٨٩٨ م .. وفي ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨ م انسحبت القوة الفرنسية من « فاشودة » ، فأثار تراجعها خيبة امل لدى الاوساط الوطنية التي كانت تعلق آمالا على استغلال التناقض الفرنسي ـ الانجليزي « حول المسألة المصرية » ، وكان مصطفى كامل في مقدمة القوى التي تعلق الكثير من الآمال على موقف الفرنسيين .. وكانت حادثة فاشودة بداية التراجع الفرنسي امام انجلترا ، ومقدمة للاتفاق الودي الذي عقد بين الدولتين في ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ م ، كما كان هذا الحادث بداية لمرحلة زادت فيها يقظة مصطفى كامل لضرورة التركيز اكثر واكثر على العمل الوطني الداخلي ..

* وفي ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨ م القى خطابا وطنيا جامعا بالمسرح الايطالي بالازبكية جعل عنوانه (واجبات المصريين نحو وطنهم العزيز) عالج فيه احداث الساعة ، والواجبات الوطنية امام المتغيرات الدولية التي احدثها الانسحاب الفرنسي من « فاشودة » ..

* وفي ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ م وقعت الحكومة المصرية، الخاضعة لسلطات الاحتلال الانجليزي ، اتفاقية السودان ، التي تقنن الاحتلال الانجليزي للسودان تحت ستار الحكم المشترك «المصري ـ البريطاني» لهذه البلاد .. فشن مصطفى كامل حملة وطنية باسلة ضد هذه الاتفاقية ، معلنا انها غير قانونية ، لان الحكومة المصرية لا تملك التنازل عن الاقاليم

التي عهدت الفرمانات السلطانية العثمانية الى الخديوية المصرية بحكمها وادارتها ..

* وفي ٨ يناير سنة ١٨٩٩ م بدأ نشاطه التعليمي والتربوي في حقل انشاء المدارس الوطنية الهادفة الى تنشئة المواطن المصري الواعي بتاريخ بلاده الوطني والمشوق الى العمل في سبيل تحريرها ..

وفي مارس سنة ١٨٩٩ م تأسست مدرسة مصطفى كامل الابتدائية .

* * *

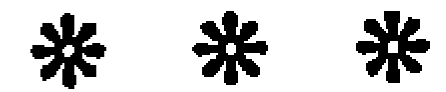
* وفي ٤ ابريل سنة ١٨٩٩ م قام برحلة سياسية جديدة ، فسافر الى فينا .. ثم باريس .. ثم برلين .. ثم بودابست .. ثم الآستانة .. وفي كل محط من هذه العواصم كان يدلي بالاحاديث الصحفية التي يثير بها الرأي العام العالمي ضد احتلال انجلترا لمصر وعدوانها على السودان ..

* وفي يونيو سنة ١٨٩٩ م انعم عليه السلطان عبد الحميد الثاني برتبة « المتمايز » – (بك) – .

* ثم عاد من الآستانة الى باريس في يونيو سنة ١٨٩٩ م ، والقى خطابا سياسيا في نخبة من قادة الفكر والرأي والسياسة الفرنسيين بقصر مدام جولييت آدم ..

* ثم عاد مرة اخرى الى الآستانة في اغسطس سنة ١٨٩٩ م حيث انعم عليه السلطان بالرتبة الاولى من الصنف الثاني ، ثم انعم عليه كذلك بالوسام المجيدي الثاني ..

* واخيرا عاد الى القاهرة ..



* وفي ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ م القى خطابا سياسيا جامعا في مسرح الازبكية الايطالي .

* وكان قد اخذ منذ مدة في الاعداد لاصدار صحيفة يومية تكون مدرسة للحركة الوطنية في ميدان الصحافة ، فصدرت (اللواء) في اليوم الثاني من يناير سنة ١٩٠٠ م (غرة رمضان سنة ١٣١٧ هـ) ، فكانت اكثر الاصوات الوطنية ارتفاعا منذ ان احتلت انجلترا مصر .. واصبح للحركة الوطنية منبرها المعبر عنها اصدق تعبير .

وفي ٢ يونيو سنة ١٩٠٠ م القى خطابا سياسيا جامعا بمسرح زيزينيا بالاسكندرية .

* وفي ١٦ يونيو سنة ١٩٠٠ م سافر في رحلة سياسية جديدة ، فزار فينا وبعض العواصم الاوروبية الاخرى .. وعاد الى مصر من هذه الرحلة في اغسطس سنة ١٩٠٠ م .

* وفي اول اكتوبر سنة ١٩٠٠ م خطب في حفل وطني اقيم لتوزيع الجوائز على التلاميذ النابغين في مدرسته ، وفي خطابه هذا تناول بالحديث منهجه في التربية والتعليم الوطنيين ..

* وفي عدد (اللواء) الصادر في ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٠٠ دعا الى احياء الصناعات الوطنية .

* وفي ١٥ ابريل سنة ١٩٠٠ م القى خطابا وطنيا في بلدة (بريم) ، بالبحيرة ، في حفل افتتاح احدى المدارس الوطنية هناك .

* * *

* وفي صيف سنة ١٩٠١ قام برحلة سياسية جديدة الى باريس .. ونشرت له صحيفة (**الاكلير**) حديثا عن

المسألة المصرية وتطور الحركة الوطنية في مصر ..

* وفي ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢ م احتفل بتوزيع الجوائز على التلاميذ النابغين بمدرسته ، والقى خطابا عن المفهوم الوطني للتربية والتعليم . .

* وفي الاحتفال بمرور مائة عام هجري على اختيار الشعب المصري لمحمد علي باشا واليا على مصر القى خطابا وطنيا جامعا تناول فيه تاريخ مصر وقدراتها الكامنة وتطور صراعها ضد الغزاة ، وذلك في ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ م (١٣ صفر سنة ١٣٢٠ هـ) .. وكان لخطابه هذا صدى واسع في الصحف العربية والاجنبية ، مثل : (الاهرام) و (البصير) و (الفارد الكسندري) و (الريفورم) و (الكورييري اجبسيان) و (الاجبشيان جازيت) .. الخ .. الخ ..

* * *

* وفي يناير سنة ١٩٠٤ م وصلت الى مصر صديقة حركتها الوطنية وراعية نشاط مصطفى كامل في فرنسا مدام جوليت آدم ، فاستقبلها مع عديد من اعضاء الحركة الوطنية، وصحبها في برنامج حافل زارت فيه اهم معالم الحضارة المصرية .. وكانت زيارتها لمصر مناسبة لنشاط سياسي ووطني شاركت فيه الجالية الفرنسية خصوصا والجاليات الاوروبية عموما .. كما حضرت حفل توزيع الجوائز على النابغين من تلاميذ مدرسة مصطفى كامل في ١٩ فبراير سنة ١٩٠٤ م .. واقام لها الخديو عباس الثاني وليمة بقصر القبة في ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤ م ، قبل ان تغادر مصر في ٤ مارس سنة ١٩٠٤ م ..

* وفي مارس سنة ١٩٠٤ م انعم السلطان عبد الحميد الثاني على مصطفى كامل برتبة الباشوية ..

* وفي ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ م عقد الاتفاق الودي « الانجليزي ـ الفرنسي » ، الذي انهى فترة الصراع بين الدولتين ، واطلق يد فرنسا في مراكش ويد انجلترا في مصر . فزادت خيبة امل مصطفى كامل في الحكومة الفرنسية، وعلت نبرة الاعتماد على النفس في فكره ونشاطه العملي ، وان يكن ظل حريصا على نصرة احرار اوروبا وشعوبها للقضية المصرية . .

ولقد قام بشرح الموقف الوطني ، بعد الاتفاق الودي ، في خطابه الجامع الذي القاه بمسرح زيزينيا بالاسكندرية في ٧ يونيو سنة ١٩٠٤ م تحت عنوان (الموقف السياسي وواجبات المصريين) . . وكان لهذا الخطاب صدى واسع في الصحافة العربية والاوروبية . .

* وفي يونيو سنة ١٩٠٤ م اصدر كتابه (الشمس المشرقة) الذي كرسه للحديث عن تجربة النهضة الحديثة في اليابان ، كي تكون نموذجا يحتذى لدول الشرق في هذا المضمار .

* وفي ذلك العام ظهر الفتور في علاقاته بالخديو عباس الثاني ، لان الخديو شرع في مهادنة سلطات الاحتلال منذ حادثة فاشوده ، ثم زادت مهادنته بعد الاتفاق الودي ، ولقد انتقد مصطفى كامل حضور الخديو ، لاول مرة ، احتفال جيش الاحتلال في ميدان عابدين بعيد جلوس ملك انجلترا في ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٤ م .

* وفي ديسمبر سنة ١٩٠٥ م اصدر في باريس مجموعة خطبه ورسائله ومقالاته عن المسألة المصرية ، مترجمة الى الفرنسية ، في كتاب عنوانه : (المصريون والانجليز) في ٣٢٠ صفحة وقدمت له مدام جولييت آدم ، ونشر في أوروبا

على نطاق واسع ، فكان موضع تعليق الصحف ومثيرا للحديث عن المسألة المصرية في كثير من المحافل الاوروبية .

* وفي ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٥ م اجتمعت الهيئة التأسيسية (لنادي المدارس العليا) الذي ضم التيار الوطني الذي بلوره مصطفى كامل في صفوف المثقفين، وافتتح النادي في ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ م ، فكان تكوينه المقدمة لتأسيس الحزب الوطني .

* وفي فبراير سنة ١٩٠٦ م اضرب طلبة مدرسة الحقوق الخديوية ، بوحي وتأثير من سياسة مصطفى كامل الوطنية ، واحتجاجا على السياسة التعليمية والتصرفات الادارية للمستشار الانجليزي لشئون المعارف « دانلوب » .

* وفي مايو سنة ١٩٠٦ م وقعت احداث الحدود التي عرفت بحادثة « العقبة » ، عندما ارادت تركيا مد خط حديدي من « معان » الى « العقبة » ، فرأى الانجليز في ذلك تقوية لمركز تركيا في المواجهة معهم ، وثار خلاف بينهما حول حدود مصر الشرقية ، انتهزه مصطفى كامل كي يطالب بفتح ملف القضية المصرية وجلاء الانجليز عن البلاد .

* وفي ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ م وقعت احداث « دنشواي » الشهيرة ، وكان مصطفى كامل مريضا يعالج في اوروبا ، فتمرد على اوامر الاطباء ، وغادر سرير المرض ليثير ثائرة الرأي العام العالمي ، حتى الانجليزي منه ، ضد سياسة انجلترا وحكم كرومر في مصر .. وخاصة بمقاله المدوي (الى الامة الانجليزية والعالم المتمدن) الذي نشرته (الفيجارو) الفرنسية ، ثم تناقلته صحافة العالم .

* وفي ١٤ يوليو سنة ١٩٠٦ م سافر الى لندن ، كي يثير الرأي العام الانجليزي ضد حكومته ، وليهاجم انجلترا في عاصمتها ، وهناك التقى بعدد كبير من الساسة والنواب

والكتاب والصحفيين .. وترجم مقاله (الى الامة الانجليزية والعالم المتمدن) الى الانجليزية .. ونشرت لـه جريـدة (الديلي كرونكل) في ٢ يوليو سنة ١٩٠٦ م حديثا وطنيا عن المسألة المصرية وحادثة « دنشواي » .

وفي ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٦ م اقامت (جمعية الوحدة الاسلامية الهندية) بلندن مؤتمرا بفندق « كربتريون » حضرته الجاليات الشرقية بلندن وجمع من قادة الرأي العام الانجليزي ودعت مصطفى كامل كي يخطب فيه ، فالقى خطابا وطنيا شرح فيـه اهداف الحركة الوطنيـة المصرية فـي الجـلاء والاستقلال .

وفي ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٦ م اقام بفندق « كارلتون » مأدبة دعا اليها عددا مـن الساسة والكتـاب والصحفيين والنواب ، وخطب فيهم شارحا احداث مذبحة « دنشواي » وخطة الحركة الوطنية في مصر .

وفي صحيفة (الديلي جرافيك) نشر مقالا تحت عنوان (مصر للمصريين) رد فيه على مزاعم القائلين ان الحركة الوطنية في مصر تستهدف التحرر من نير الانجليز كي تعيد مصر الى نير العثمانيين ..

* وفي صيف سنة ١٩٠٦ م غادر لندن الـى فيشي للاستشفاء ، فاستقبله المصريون هناك بالترحيب والاعجاب .

* وفي اغسطس سنة ١٩٠٦ م تألفت في مصر لجنة شرعت تجمع الاكتتاب كي تقيم حفلا لتكريم مصطفى كامل عند عودته الى مصر وتهديه تذكارا يعبر عن امتنان الامـة لدفاعه عنها في محنتها ، وعندما علم بالنبأ ، وهو في باريس، كتب الى محمد فريد في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦ م يشكر اللجنة على مشاعرها ، ويطلب تحويل الاكتتاب كي يكون نواة مشروع وطني لانشاء الجامعة المصرية ؟!

* ثم عاد الى مصر في ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٦ م فاستقبله الشعب استقبالا حافلا عبر به عن عرفانه بجهوده الوطنية الرائعة ، كما كان مظاهرة وطنية ضد مجزرة « دنشواي » .

* وفي نوفمبر سنة ١٩٠٦ م كون شركة صحفية اخذت تعد لاصدار صحيفتين وطنيتين، احداهما بالانجليزية والثانية بالفرنسية ، كي يصل صوت الحركة الوطنية الى كل مكان .. وفي ٢ مارس سنة ١٩٠٧ م صدرت (ليتندار اجبسيان) بالفرنسية ، وفي يوم ٣ مارس سنة ١٩٠٧ م صدرت (ذي اجبشيان ستاندرد) بالانجليزية .. واقام لهذه المناسبة حفلا في فندق « الكونتننتال » في ٢ مارس القى فيه خطابا وطنيا جامعا ..

* وفي ابريل سنة ١٩٠٧ م اثمرت حملة مصطفى كامل ضد صانعي مجزرة « دنشواي » ، فاستقال اللورد كرومر من منصبه .

* وفي ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧ م ارسل مصطفى كامل الى رئيس الوزراء الانجليزي « هنري كامبل بانرمان » خطابا في ذكرى احتلال الانجليز للقاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م .. ونشرته (الفيجارو) الفرنسية في نفس التاريخ ، ونقلته عنها صحف اوروبا ووكالات الانباء .

* وفي ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ م القى بمسرح زيزينيا بالاسكندرية خطابا وطنيا ركز فيه على ضرورة تكوين الحزب الوطني ، حزب الجلاء ..

* وفي ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ م انعقدت بدار (اللواء) الجمعية العمومية لتأسيس الحزب الوطني ، وسط تأييد وطني شعبي تجاوبت به مصر كلها مع الفكرة التي آن

الاوان كي تتجسد في حزب يحمل راية الجهاد في سبيل الاستقلال .

* ولم ينس مصطفى كامل ضحايا مذبحة « دنشواي » الذين لم ينفذ فيهم الاعدام ، والذين زج بهم في السجن ، فقاد حملة وطنية تطالب بالافراج عنهم ، وجمعت لذلك توقيعات ١٢٦٧٠ مواطنا ملأت ١٤٨ عريضة ، ولقد اثمرت هذه الحملة قرار الافراج الذي اصدره الخديو في ديسمبر سنة ١٩٠٧ م ، والذي نفذ بمناسبة عيد جلوسه على العرش في ٨ يناير سنة ١٩٠٨ م .

* * *

ودخل عام ١٩٠٨ م ، والمرض قد ازداد شدة على مصطفى كامل ، وكان قد صاحب ازدياد المرض عليه حزنه على وفاة والدته في سنة ١٩٠٧ م وازدياد نشاطه في سبيل تكوين الحزب الوطني ، حتى ان خطابه الذي القاه في الجمعية التأسيسية للحزب في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ م كان اشبه بخطبة الوداع التي رسم بها الهدف ، وحدد المنهج ، واودعهما الحزب الذي تأسس كي يحمل الراية ويواصل الطريق .. ويومها غادر سرير المرض ليلقي خطابه ، ثم عاد الى نفس السرير .. يفكر .. ويكتب .. ويستقبل زواره ومريديه .. حتى حم القضاء ، ووافاه الاجل في الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ م (٨ محرم سنة ١٣٢٦ هـ) ..

* ولقد كانت جنازة مصطفى كامل في ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م حدثا جليلا ومشهدا مهيبا لا مثيل له في تاريخ مصر الوطني ، عندما خرجت مصر لوداع ابر ابنائها بها واحناهم عليها واخلصهم لقضية حريتها وتحريرها ، وكأنما ارادت

الامة بهذا المشهد التاريخي الذي ضم صفوفها ان تعلن القرار القائل : ان مصر قد انتقلت بفضل هذا الشاب الموهوب ، الذي استجاب لطاقات الوطنية الكامنة في احشاء الشعب ، فكان التجسيد الحي لها .. ان مصر قد انتقلت الى عصر جديد .. عصر مواصلة النضال التاريخي الذي مارسه الشعب على مر العصور ضد كل الغزاة وجميع الطغاة ..

ولقد وصف قاسم امين — ولم يكن من حزب مصطفى كامل — هذه الجنازة الفريدة ، فكتب يقول : « ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م ! يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق ، المرة الاولى كان يوم تنفيذ حكم دنشواي ، اما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب (اللواء) فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا في قوة جماله ، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها في العاصمة ، ووصل صدى دويها الى جميع انحاء القطر . هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذي خرج من احشاء الامة ، من دمها واعصابها ، هو الامل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذي يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل ! » .

* * *

نعم ... فلقد كانت حياة مصطفى كامل ، كما كان مماته شهادة صادقة على خلود هذه الامة وخلود نضالها ضد كل الغزاة والطغاة والخونة والجبناء على مر العصور وتعاقب الاجيال ..

ومن الذي يستطيع ان ينكر ذلك ، و « بطاقة الحياة » التي قدمناها في هذه الصفحات هي مجرد عناوين لصفحات سجل حافل بالمجد والبطولة والعبقرية والنبوغ اهداه اوطنه

ذلك الفتى الذي مات ــ عن اربعة وثلاثين عاما ــ في عمــر الزهور ؟!

وهو بالرغم من عمره القصير بحساب السنين الا انه قد كان لاكثر من نصف عمره هذا كوكب الوطنيــة اللامــع والمضيء في سماء هذه البلاد .. كما كان ولا يزال اصدق نموذج للخلق الوطني والفداء القومي الذي بلغ حد الحب الصوفي لحضارة هــذه الامــة ومقاومتها التاريخية وابائها الاستسلام للغزاة والطغاة .

الجـامعة الاسلامية ...

لقد راجت الاضـاليل والاكـاذيب والخزعبلات بـين العـامة باسـم الدين .. ولا سبيل لابادة جيش الباطل الذي ألف ونظم باسم الدين الا بالدين نفسه .

ان حركـة الجـامعة الاسلامية ، بمعنى الحرب الدينية ، لا وجود لها بالمرة .. ولا يوجد مسلم متنور يدعو الى تأليف عصبة اسلامية ضد المسيحية ...

لقد ادرك المسلمون من زمان بعيد استحالة العيش فـي معـزل عـن العالم .. وان ميل المسلم لابناء دينه امر طبيعي وشرعي ، يزكيه ان لتأخر الشعوب الاسلامية اسباب واحدة ..

وبالتعليم والنور واحيـاء الافكار ونشر المعارف وارشاد الامة الـى الحقيقـة الدينيـة يتقـدم المسلمون ..]

مصطفى كامل

كان مصطفى كامل من انصار الجامعة الاسلامية ، بل من دعاتها ، وسواء في عصره او بعد موته ، فلقد وجهت اليه الانتقادات والاتهامات لرفعه هـذا الشعـار ونضـاله تحت الويته واعلامه ، وفي العديد من خطبه ومقالاته ورسائله نقرأ دفاعا عن الجامعة الاسلامية ، وتفسيرا لمفهومـه لهـا والمضمون الذي يعنيه عندما يرفع هذا الشعار .

ولم يكن غريبا ان ينخرط مصطفى كامل والتيار الوطني الذي بلوره وقاده ورعاه مع القوى العديدة التي اتجهت للعمل الفكري والسياسي تحت شعار الجامعة الاسلامية ، لان هذا الشعار كان ابرز الشعارات التي عرفها الشرق كله في القرن التاسع عشر ، وعلى الاخص في النصف الثاني منه .. ولكن الغريب هو عدم التمييز بين التيارات المختلفة والمتمايزة التي استظلت بشعارات الجامعة الاسلامية واعلامها ، تلك التيارات التي رفعت جميعا هذا الشعار ، ولكـن مـن منطلقات غير متحدة ، ولاهداف متعددة ، وان جمعت بينها جميعا بعض القسمات والغايات .. . ونحن نعتقد ان هذا الخلط الذي قاد اصحابه للنظر الى حركة الجامعة الاسلامية باعتبارها تيارا فكريا وسياسيا واحدا ، لا عدة تيارات ، هـو المسئول عن تلك الافكار المغلوطة ، التي تبلورت في شكل عدد من الاتهامات التي وجهت الى نضال مصطفى كامل تحت هذا الشعار ..

فالجامعة الاسلامية ، تعني ، في الاساس ، ذلك التيار الفكري والسياسي الذي ابصر قادته وانصاره ان هناك عددا

من التحديات التي تواجه الفكر الاسلامي والشعوب والامم الاسلامية ، سواء أكانت تلك التحديات آتية من داخل الاوطان الاسلامية ، كالتخلف الفكري والروحي والانحدار الحضاري والسياسي والصراعات الاقليمية والقبلية ، او آتية من الخارج في شكل المد الاستعماري والامبريالي الذي زحف من اوروبا على الشرق ، وخاصة في القرن التاسع عشر .. تيار الجامعة الاسلامية هو الذي ابصر اصحابه هذه التحديات ، ثم آمنوا بأن تشخيصها في مختلف هذه البلاد ، له كذلك طريق واحد يؤدي إلى تلك الغاية الواحدة المنشودة ، وهي التغلب على هذه التحديات ، والعودة بهذه الامم والشعوب الاسلامية الى دائرة التأثير الانساني والعطاء الحضاري كما كانت قبل ان تقهرها هذه التحديات ..

ذلك هو الوصف العام لتيار الجامعة الاسلامية ، الفكري والسياسي، كما عرفه الشرق في ذلك التاريخ .. ولكن وحدة هذا الشعار لم تخف في يوم من الايام عن عين الباحث المتأمل تلك الفروق الجوهرية التي جعلت ، في الحقيقة والواقع ، من تيار الجامعة الاسلامية عددا من التيارات، بينها من عوامل الاختلاف والتمايز ، احيانا ، اكثر مما بينها من اوجه الوفاق والاتفاق ... ومن ثم فان الحديث عن (مصطفى كامل والجامعة الاسلامية) يتطلب اولا ان نحدد موقعه الفكري والسياسي من « خريطة » تيارات الجامعة الاسلامية ، وهو الامر الذي يستدعي في البداية القاء نظرة على « خريطة » هذه التيارات ..

(تيارات في اطار الجامعة الاسلامية)

* ونحن نستطيع ان نذكر الحركة الوهابية ، التي اسسها زعيمها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ — ١٧٩٢ م)

كأقدم تيار فكري وسياسي يمكن ان يندرج تحت شعار « الجامعة الاسلامية » في عصرنا الحديث .. فلقد كانت الوهابية ـ في الفكر ـ حركة ترمي الى تجديد شباب الاسلام والمسلمين عن طريق طرح ركام البدع والخرافات التي دخلت في عقائد المسلمين ، وهي البدع والخرافات التي كانت تكون الجزء الاساسي من تصور السلطنة العثمانية ومؤسساتها عن عقائد الاسلام ، ومن ثم كانت الوهابية ـ سياسيا ـ حركة مناهضة للعثمانيين .. (١)

* ولقد كانت الحركة السنوسية التي اسسها بالمغرب العربي محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧ ـ ١٨٥٩ م) هي الامتداد الوهابي الى بلاد الشمال الافريقي ، بعد ان ادخلت في بنيتها الفكرية ونشاطها العملي خصائص المكان وتحديات الاستعمار الغربي ، وخاصة الفرنسي ، التي كانت تزحف على تلك المنطقة في ذلك الحين .. ومن ثم فان السنوسية كذلك، بطابعها الصوفي الذي تميزت به عن الوهابية ، كانت هي الاخرى تيارا يعمل ويناضل تحت هذا الشعار .. (٢)

* بل ان تيار الحركة الاسماعيلية الحديثة التي كان من ابرز قادتها « اغاخان » (١٨٧٧ ـ ١٩٥٧ م) قد عمل هو الآخر تحت شعار الجامعة الاسلامية ، وفي ذلك يقول اغاخان : « ان هناك جامعة اسلامية حقة صريحة ينضم الى لوائها الحر كل مسلم مؤمن مخلص ، اعني بذلك **الرابطة الروحانية الوجدانية** ، والوحدة الجامعة بين اتباع صاحب الرسالة الاسلامية ، فهذه الوحدة الاسلامية الروحانية

---

(١) انظر (حاضر العالم الاسلامي) تأليف : لوثروب ستودارد . ترجمة : عجاج نويهض . مجلد ١ جا ص ٢٩١ . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

(٢) المصدر السابق . مجلد ١ ج ١ ص ٢٩٠ .

التهذيبية يجب ان تتعهد فتنمو ابدا ، لانها عند اتباع النبي أس الحياة وجوهر النفس ! » (٣) .

فتحت شعار الجامعة الاسلامية ، اذا ، نجد : الوهابية بقسماتها السلفية .. والسنوسية باتجاهاتها الصوفية .. والاسماعيلية بما تتميز به من اسرار وباطنية تستدعي وضع العديد من علامات الاستفهام ؟!

* ثم ، هناك ذلك التيار الذي كان ابرز تيارات الجامعة الاسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، والذي تزعمه فيلسوف الشرق وموقظه جمال الدين الافغاني (١٨٣٩ — ١٨٩٧ م) والذي زامله فيه الاستاذ الامام محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥ م) .. ولقد تميز هذا التيار بعدد من الخصائص في مقدمتها :

١ — الاصلاح الديني من منطلق العقلانية ، ايمانا بأن الشرق لن ينتصر في صراعه مع الغرب الا اذا تسلح بسلاح العقل ، ذلك السلاح الذي ضمن للغرب تفوقه في هذا الصراع .

٢ — تجديد الصلات الحضارية مع الغرب ، واقتباس المناسب منها — كما صنع العرب في العصر العباسي — حتى يتمكن الشرق من العودة الى دائرة التأثير والعطاء الحضاري .

٣ — المحافظة على بقاء السلطنة العثمانية ، وتنمية جوانبها الايجابية ، والعمل على تجديد شبابها ، لا من منطلق الايمان بها كخلافة اسلامية وامارة للمؤمنين ، وانما من منطلق الضرورات التي يحتمها التصدي للعدو الرئيسي وهو الاستعمار الاوروبي الزاحف على بلاد الاسلام .. فهو يحافظ عليها سياسيا ، ويحاول تنمية قواها السياسية ، ويهاجم

(٣) المصدر السابق . مجلد ١ ج ١ ص ٣٢٠ .

فكريتها الرجعية المتخلفة بهدف تطويرها وتجديد شبابها ..

ومن اجل ذلك لم يناصر هذا التيار ـ في كثير من الاحيان ـ حركات الاستقلال القومي العربي عن الامبراطورية العثمانية ، لانه كان يبصر تربص الاستعمار الاوروبي كي يكون هو الفائز الاول ، وربما الوحيد ، من وراء الصراع القومي ضد العثمانيين .. ويعبر عن هذه الحقيقة راي الامام محمد عبده في اهلية عرب شبه الجزيرة العربية للاستقلال عن تركيا اذ يقول : « ان العرب اهل لذلك ، ولكن الترك لا يمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عندهم ، فاذا شعروا بذلك او رأوا بوادره قاتلوهم ، حتى اذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول اوروبة الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا على الفريقين او على اضعفهما ، وهذان الشعبان ـ (العرب والاتراك) ـ هما اقوى شعوب الاسلام ، فتكون العاقبة اضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته » (٤) .

٤ ـ وانطلاقا من هذا التأييد السياسي للسلطنة العثمانية اجتهد هذا التيار كي يجعل من « علاقة الدين والمعتقد » بديلا للعلاقات القومية ـ (الجنسية) ـ التي كانت تنمو يومئذ في عدد غير قليل من الاقطار المحكومة بسلطة آل عثمان .. ولقد عبرت مجلة (العروة الوثقى) عن هذه الخاصية التي كانت من ابرز خصائص هذا التيار ، فكتبت : انه « لا جنسية للمسلمين الا في دينهم » (٥) و « ان المسلمين لا يعرفون لهم جنسية الا في دينهم واعتقادهم » (٦) وان

---

(٤) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده ، دراسة وتحقيق محمد عمارة . جـ ١ ص ٧٣٥ طبعة بيروت ١٩٧٢ م .

(٥) الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني . دراسة وتحقيق محمد عمارة . ص ٣٤٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(٦) المصدر السابق . ص ٣٠٧ .

المسلمين ، تاريخيا « لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الاجناس ، وانما ينظرون الى جامعة الدين ، فلهذا تـرى المغربي لا ينفر من سلطة التركي ، والفارسي يقبل سيـادة العربي ، والهندي يذعن لرياسة الافغاني ، ولا اشمئزاز عند احد منهم ولا انقباض ، وان المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من اشكالها وانتقالها مـن قبيل الى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها » (٧) .

ولقد واصل الامام محمد عبده ، بعد (العروة الوثقى) التبشير بنفس الافكار ، ففي احدى فتاواه سنة ١٣٢٢ هـ — قبل وفاته بعام واحد — يقول : ان « الجنسية ليست معروفة عند المسلمين ، ولا لها احكام تجري عليهم ، لا في خاصتهم ولا عامتهم ، وانما الجنسية عند الامم الاوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب : عصبية . . جاء الاسلام فألغى تلك العصبية . . فالجنسية لا اثر لها عند المسلمين قاطبة . . . لا جنسية في الاسلام . . » (٨) .

٥ — ولكن هذا المفهوم المناهض للتمايز القومي وحركات التبلور المرتكزة على اسس قومية لم يجعل هذا التيار مـن تيارات الجامعة الاسلامية ينكر الاستقلال الذاتي على الشعوب الاسلامية المؤهلة لذلك عن سلطة العثمانيين ، يشهد لذلك ان هذا التيار هو الذي رفع شعار « مصر للمصريين » قبيل الثورة العرابية ، من خلال (الحزب الوطني) السري الذي قاده الافغاني في مصر ، وان هذا التيار قد شارك — من موقع الاعتدال — في الثورة العرابية ذات الطابع القومي المصري . . . فهو لم يكن يدعو الى « وحدة الدولة » بين كل المسلمين ،

---

(٧) المصدر السابق . ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٨) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده . جـ ٦ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

لاعتبارات عملية كثيرة جعلته يطلب « وحدة السياسة » و « التضامن » الاسلاميين ، بدلا من « وحدة الدولة » ، والافغاني يعبر عن ذلك المطلب في (العروة الوثقى) فيقول : انا لا اطلب « ان يكون مالك الامر في الجميع شخصا واحدا ، فان هذا ربما كان عسيرا ، ولكني ارجو ان يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه .. » (٩) .

كما يعبر عنها الامام محمد عبده فيقول في رده على « جبرييل هانوتو » : « ... يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية ، والسلطان عبد الحميد ، ويعلقون آمالهم بهمته ، وكثير منهم يدعون الى عقد الولاء له ، وهذا امر لا ينبغي ان يدهش احدا ، **فان هذه الدولة هي اكبر دول الاسلام اليوم ، وسلطانها افخم سلاطينهم ، ومنه يرتجى انقاذ ما بين يديه من المسلمين مما حل بهم** ، وهو اقدر الناس على اصلاح شئونهم ، وعلى مساعدة الداعين الى تمحيص العقائد وتهذيب الاخلاق بالرجوع الى اصول الدين الطاهرة النقية .. » (١٠) .

٦ ــ كما يمتاز هذا التيار من تيارات الجامعة الاسلامية بدعوته الدائمة الى توحيد العناصر الوطنية للاقطار الاسلامية بصرف النظر عن العقائد والاديان .. فتيار الجامعة الاسلامية ــ في هذا الحقل ــ هو عندهم تيار الجامعة الشرقية العامل في سبيل يقظة الشرق ونهضته ، وما الحديث عن المسلمين الا بسبب من ان الاغلبية مسلمة والكثير من الامراض انما

(٩) الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني . ص ٣٤٥ .

(١٠) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده . ج ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

مصدرها ما أصاب عقائد المسلمين الدينية من تخلف وجمود ابعدها عن جوهرها النقي الاصيل .. فالافغاني لا يميز بين الناس على اساس من الدين والمعتقد ، بل يقطع بأنك « لا ترى في الاديان الثلاثة ما يخالف نفع المجموع البشري ، بل بالعكس تحضه على ان يعمل الخير المطلق مع اخيه وقريبه ، وتحظر عليه عمل الشر مع أي كان ... اما اختلاف اهل الاديان فليس هو من تعاليمها ، ولا أثر له في كتبها ، وانما هو صنع بعض رؤساء الاديان ، الذين يتجرون بالدين ، ويشترون بآياته ثمنا قليلا . ساء ما يفعلون ! » (١١) والامام محمد عبده ، الذي كون في منفاه ببيروت جمعية لتوحيد الاديان ، يحذر من التفرقة بين ابناء الوطن الواحد بسبب تعدد الاديان، لانه « اذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منها بما يحط شأن الاخرى ، فكانت كل مساعيهم ضررا على اوطانهم ! » (١٢) .

٧ — هذا عن الوحدة الوطنية في الداخل ... اما عن الخارج ، فان هذا التيار لم ير في الجامعة الاسلامية حركة يواجه فيها اسلام الشرق مسيحية الغربيين ، فهي ليست عودة الى الصراعات الدينية والحروب المقدسة ، وانما هي تيار سياسي وحضاري يبغي يقظة الشرق كي يدفع عن نفسه التحديات الداخلية والخارجية على السواء .. وعن هذه القسمة من قسمات ذلك التيار يقول الامام محمد عبده : انه « لم يخطر ببال أحد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين ، سواء في مصر او غيرها ، ان يثير فتنة على الاوروبيين او غيرهم من الامم المجاورة للمسلمين ... وبعضهم يظن انه لو انتبه المسلمون ... لاستغنوا عمن ادخلوه في اعمالهم من غيرهم ... وهو سوء ظن ... فان اهل الوطن الواحد لا يستغني

---

(١١) الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني . ص ٢٩٢ .
(١٢) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده . ج ١ ص ٦٥٣ .

بعضهم عن بعض ... نعم .. يعرض في طريق الدعوة الى الدين ، من هذا الوجه ، ان يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم بسوريا او بالهند أو بالعجم او بافغانستان ، أو بغير هذه الاقطار ، لان مرض الجميع واحد ، وهو البدعة في الدين ، فاذا نجح الدواء في موضع كان السليم اسوة لمريض في موضع آخر .. » (١٣) .

فهو ، اذا ، تيار سياسي وفكري ناضل تحت شعار الجامعة الاسلامية من اجل يقظة الشرق كله ، على اساس من وحدة العقيدة الاسلامية كبديل للتقسيمات والتجزئة القومية .. وعلى اساس من التأييد والمساندة للسلطنة العثمانية — التي رام تجديدها وتقويتها في ذات الوقت — كراية يحتشد الشرق من خلفها ضد الزحف الاستعماري الاوروبي .. وعلى اساس من تجديد الفكر الديني وتطويره بالعقل والعقلانية .. وعلى اساس من الانفتاح على الحضارة الاوروبية والاستفادة من عطائها الملائم والضروري .. واستنادا الى وحدة وطنية تجمع ابناء الاديان الشرقية الثلاث ، وخاصة المسلمين والمسيحيين ... تلك هي ملامح ذلك التيار الذي كان ابرز تيارات الجامعة الاسلامية في ذلك الحين .

* ثم هناك التيار الذي مثله المفكر العربي الاسلامي عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ — ١٩٠٢ م) وهو الذي رام تجديد حياة العالم الاسلامي ، ولكن تحت قيادة العنصر العربي ، فكانت الجامعة الاسلامية عنده تيارا مناهضا للاتراك العثمانيين . (١٤)

* ثم هناك اخيرا التيار العثماني في الجامعة

---

(١٣) المصدر السابق . جـ ٣ ص ٢٣٢ .

(١٤) انظر الدراسة التي قدمنا بها لاعماله الكاملة ، وخاصة صفحات ٣٤ — ٥٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

الاسلامية ، وهو الذي قاده السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ ـ ١٩١٨ م) نحوا من ثلاثين عاما .. وهو التيار الذي كانت تعني فكرة الجامعة الاسلامية لديه وحدة دولة الامبراطورية العثمانية واحكام قبضتها على كل اجزاء العالم الاسلامي ، واستبعاد كل العوامل والتيارات التي تعرقل الوصول الى هذا الهدف الاصيل ..

تلك هي التيارات الاساسية التي عرفتها حركة الجامعة الاسلامية ... فأين كان موقع مصطفى كامل وحزبه الوطني وتياره السياسي والفكري من هذه الخريطة التي رسمنا اهم معالمها ؟ واذا كان التيار الذي عبر عنه الافغاني ومحمد عبده قد كان اكثر تيارات الجامعة الاسلامية عمقا وتقدما ، فما مكان مصطفى كامل ـ كداعية من دعاة الجامعة الاسلامية ـ من هذا التيار بالذات ؟؟ أكان عن يمينه ، ومتخلفا عنه ؟ ام تقدمه ، واستشرف آفاقا اكثر تطورا وتقدما من تلك التي وصل الى آفاقها ذلك التيار ؟؟ واذا كانت علاقته بالعثمانيين وسلطانهم قد كانت دوما مغمزا لخصومه ومناوئيه ، فما مكانه من التيار العثماني في حركة الجامعة الاسلامية ؟ ومن ثم ما هي القيمة الموضوعية للاتهامات التي وجهت اليه في هذا المجال ؟؟..

(الاتهــام ..)

ليس هناك من طعن ، او من يستطيع ان يطعن في وطنية مصطفى كامل ، ، وحبه ، بل عشقه لمصر وهيامه بها ، والوطنية كانت هي الرسالة الاولى ، ان لم تكن المهمة الوحيدة لهذا الزعيم العظيم في هذه الحياة .. ولكن هناك من طعن في موقفه من حركة الجامعة الاسلامية ، وعلاقته بتركيا والسلطان العثماني ، ثم اتخذ الطعن **في هذا الجانب من**

جوانب فكر مصطفى كامل ونشاطه سبيلا للطعن في وطنيته ... ومن هنا كان جلاء هذه الصفحة من صفحات نضاله ضروريا لرد السهام التي وجهت ، بطريق غير مباشر ، الى لب القضية والرسالة التي عاش لها ومات في سبيلها ... ومن هنا كذلك كان اختيارنا للمنهج الذي نتبعه في هذه الدراسة .. منهج جلاء الحقيقة من خلال مناقشة الاتهامات ..

ونحن نستطيع ان نلخص الاتهامات التي وجهت الى فكر مصطفى كامل ونشاطه الخاص بحركة الجامعة الاسلامية فيما يلي :

اولا : ان اعتماده الاول والاساسي في مناوأة الاحتلال الانجليزي لمصر ، كان على تركيا والسلطان العثماني ، ثم يأتي بعد ذلك اعتماده على التناقض في جبهة الدول الاوروبية والتنافس بين هذه الدول وبين انجلترا .. ومن ثم فلقد اهمل في حركته ونشاطه الشعب المصري ، ولم يتنبه الى هذا النقص الخطر في نشاطه الا بعد خيبة امله في اوروبا ، وفرنسا بالذات ، عندما عقدت الاتفاق الودي بينها وبين انجلترا في ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ م . وفي ذلك يقول احد المستشرقين : « كان مصطفى كامل حينذاك يشاطر البرجوازية المصرية في عدم ايمانها بقوى وامكانية الحركة الشعبية الجماهيرية . وكان يأمل الحصول على التحرر الوطني عن طريق استغلال التناقضات بين انكلترا وفرنسا ، وكرس لهذه الغاية كل طاقته وقواه ... وظن ان تركيا وحليفتيها الاوروبيتين : المانيا والنمسا ـ المجر قد تسانده من الخارج بعد ان خانته فرنسا ، وهو في حاجة ماسة الى سند خارجي ... ثم اعتبر التثقيف والدعاية للآراء الوطنية كوسيلة اخرى للنضال من اجل استقلال مصر ، واولى

اهتماما خاصا لهذه الوسيلة بعدما تبين له بأن تاكتيك استغلال التناقضات الانكلو ــ فرنسية عديم الجدوى » (١٥) .

ثانيا : ان مصطفى كامل كان يعني بشعار الجامعة الاسلامية العودة بمصر ، بعد تحريرها من الاستعمار الانجليزي ، الى حظيرة الدولة العثمانية ، سواء أكانت عودتها تلك « كولاية عادية » ، او « كولاية ممتازة » تتمتع باستقلال ذاتي عن آل عثمان .. وفي ذلك يقال عنه : انه « لم يرفع شعار استقلال مصر التام ، بل ناضل لاعادة البلاد الى حظيرة الامبراطورية العثمانية ، وبهذه المناسبة بشر بفكرة الجامعة الاسلامية .. » (١٦)

وكما ترددت هذه الاتهامات بعد وفاة مصطفى كامل ، فلقد وجهت اليه في حياته ، وانبرى للرد عليها (١٧) .

ثالثا : ان شعار الجامعة الاسلامية عند مصطفى كامل كان ذا مضمون طائفي ، فحديثه كان عن المسلمين دون الاقباط من ابناء مصر ، ودعوته كانت لمواجهة بين اسلام الشرق ومسيحية الغرب ، وفكره كان رجعيا متخلفا عن روح العصر وعن المدنية الاوروبية على وجه التحديد ...

واذا كانت هذه هي الاتهامات الاساسية التي وجهت وتوجه الى موقف مصطفى كامل من شعار الجامعة الاسلامية وحركتها ، فاننا واجدون ــ لحسن الحظ ــ في فكره ونشاطه ومواقفه ما يفندها وينقضها ، جميعا وبلا استثناء ...

---

(١٥) لوتسكي (تاريخ الاقطار العربية الحديث) ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ . طبعة موسكو ، العربية ، سنة ١٩٧١ .

(١٦) المرجع السابق . ص ٢٩٠ .

(١٧) عبد الرحمن الرافعي (مصطفى كامل ، باعث الحركة الوطنية) ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٣٥١ ، ٥١٠ ، ٥١١ . الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٢ م.

(التوازن الدولي)

(ودور تناقضات اوروبا في حل المسألة المصرية)

يعكس الاتهام الاول الذي يرى اصحابه ان مصطفى كامل قد اعتمد اعتمادا كليا على تركيا وبعض حليفاتها في مناوأة الاحتلال الانجليزي لمصر ، ومن ثم فلقد اهمل العمل الوطني في داخل مصر ذاتها حتى حدث الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤م، يعكس هذا الاتهام مزيجا من الجهل وانكار الحقائق التي سطرها نضال هذا الزعيم العظيم ..

ذلك ان مصطفى كامل قد ادرك ، بدراسته لتاريخ مصر وتاريخ قضيتها الوطنية ، ان الصراع من حولها قد كان ، على مر عصور التاريخ ، قضية دولية ، ولم يكن في يوم من الايام مواجهة مقصورة على الشعب المصري والمحتل الذي يفرض عليها احتلاله .. ومن ثم فان النضال لتحرير هذا الوطن لا بد وان يدخل اصحابه في حسبانهم عناصر خريطة المجتمع الدولي ، والمهتم منها بهذه البقعة على وجه الخصوص .. ولقد كانت هذه الحقيقة في ذهن مصطفى كامل واضحة تمام الوضوح، لانها قد ارتبطت بحركة الصراع بين مصر وبين الغزاة حتى فيما قبل العصر الحديث .. ولقد وعاها ومارس لعبتها ، قبيل العصر الحديث ، علي بك الكبير (١٧٢٨ ــ ١٧٧٣ م) في صراعه ضد العثمانيين عندما تحالف مع الروس .. كما مارسها محمد علي باشا (١٧٦٩ ــ ١٨٤٩ م) بكل وضوح وجلاء ، سواء في صراعه ضد العثمانيين او ضد تحالفهم مع الانجليز او ضد تحالف الانجليز مع بقايا المماليك ..

.. ونحن نعتقد ان عمق وعي مصطفى كامل لهذه الحقيقة ــ على صغر سنه عندما بدأ نضاله الوطني ــ انما تعكس ، الى

جانب دراسته المتأنية لقضية تحرير مصر وتاريخ نضالها ، ذلك النبوغ المبكر الذي تميز به هذا الزعيم العظيم ..

فهو يطرح هذه القضية عندما يتحدث عن اهمية استغلال المتناقضات ، في المسرح الدولي ، لحساب تحرير مصر ، وعن دور التناقض بين تركيا وانجلترا في جعل تركيا تؤيد تحرير مصر ، وعن دور الحركة الوطنية المصرية في تنمية هذه الايجابية والحيلولة دون تمكن انجلترا من حل هذا التناقض لحسابها الخاص ... يطرح ذلك عندما يناقش خصومه الذين يتهمونه بأن دعوته للجامعة الاسلامية تعني استبدال الاحتلال الانجليزي بالاستعمار العثماني ، فيقول :

« اما دعواكم ان الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد الى استعباد ، وانهم انما يطلبون خروج الانجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد ، فهي دعوى لا يقبلها ذو لب ، ولا يسلم بها احد من العقلاء ، فاننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ، ونتمسك بهذا المطلب الى آخر لحظة ..

الا ان هذا الاعتقاد الذي خدمناه ونخدمه لا يمنعنا من النظر الى وجهة اخرى للمسألة المصرية ، وهي الوجهة الدولية ، **فان كل انسان له المام بسيط بالسياسة والتاريخ يعلم ان مسألة مصر كانت دائما دولية ، لان مركز مصر يقضي على الدول كلها الاهتمام بها** . وما على الكتاب الطاعنين علينا الا ان يراجعوا كتاب المسيو « فريسينيه » السياسي الفرنسي الشهير ، وغيره من اكابر السياسيين ، ليعرفوا انهم يطالبون المانيا بتغيير خطتها في المسألة المصرية ، ويذكرونها بأهمية قنال السويس ، وما يكون للدولة التي تضع يدها عليه من القوى والنفوذ ، ليتذكر هؤلاء الكتاب **بأن اوروبا لم تعمل شيئا في مصر الا بالاتفاق مع السلطان ... وان انجلترا تود الاتفاق مع جلالته على مسألة مصر لتقبرها ... فاهتمام**

المصريين بالوجهة الدولية للمسألة المصرية امر طبيعي وواجب .. ولو كانت ارقى الامم شأنا في موضعنا ، وفعلت فعلنا ، لقال عنها المنصفون انها مدركة لمعنى الوطنية الحقة ! » (١٨) .

ومن هنا نستطيع ان نقول : ان هـذا الوعي ، مـن مصطفى كامل ، بأهمية الجانب الدولي للمسألة المصرية كان من اسباب اهتمامه الشديد بالدعاية لقضيتها في خـارج مصر ، وخاصة في محافل الدول التي تتناقض مصالحها مع سيطرة انجلترا بمفردها على مقاليد الامور في مصر ..

ففي « فينا » يسأل مصطفى كامل احد نوابها ــ الدكتور « رزنر » ــ في مارس سنة ١٨٩٧ م عن موقف بلاده من قضية مصر قائلا : « هل يكون لمصر حظ يذكر **عند قيام النزاع بين المانيا وانجلترا** في يوم من الايام ؟ » (١٩) .

ومع السياسيين الالمان يثير القضية من نفس الزاوية ، فيأتيه جواب احد زعمائهم ، وهو الدكتور « هفمان زينفر » الذي كان يرأس حزب اليسار ــ (الشمال) ــ في البرلمان الالماني ، يأتي جوابه ليؤكد ان عامل التوازن الدولي ، الذي يبصر مصطفى كامل اهميته ، هو المحرك لمواقف الاوروبيين من قضية مصر ، فيقول الدكتور « هفمان زينفر » : « انـي اوافقك على وجوب جلاء الانجليز عن مصر ، لا لان الالمان يكرهونهم ــ كما يشاع عنا بلا حق ــ ولكن لتحقيق مسألة التوازن الدولي العام ، ولمصلحة قناة السويس » (٢٠) .

وعندما تثير انجلترا العديد من المشاكل امام العديد من الدول الاوروبية يدرك مصطفى كامل صلة ذلك بقضية تحرير مصر وتأثيره على اهتمام الدول بمناوأة انجلترا في

---

(١٨) اللواء في ٢ مايـو سنة ١٩٠٦ م .
(١٩) الرافعي (مصطفى كامل) ص ٩٦ .
(٢٠) المرجـع السابق . ص ٨٨ .

مصر ، فيكتب في الـ « نيويورك هرالد » الامريكية في يوليو سنة ١٨٩٧ ليقول : « لقد خلقت انجلترا مسألة الترنسفال لتشغل المانيا ، وخلقت مسألة الارمن واليونان لتشغل تركيا ، كما تسعى لحفر بئر لروسيا في الشرق الاقصى ، وكل هذه المسائل تعطل كثيرا عرض مسألة مصر على بساط البحث ، واعطاءها حقها بين الامم الحرة » (٢١) .

بل لقد انتقل مصطفى كامل بهذا السلاح — سلاح التوازن الدولي والمصالح الدولية المتعارضة — الى الجبهة الداخلية بمصر، كي يكسب الى صف الحركة الوطنيةالجاليات الاجنبية التي ينتمي ابناؤها الى امم اوروبية ، من غير الانجليز ، وفي احدى خطبه التي القاها بالفرنسية في مؤتمر لابناء هذه الجاليات بالاسكندرية — ١٣ ابريل سنة ١٨٩٦م — يقول لهم : « ان من صالح الاوروبيين النازلين في مصر ان يتحقق الجلاء ، لانه اذا صارت انجلترا مالكة لمصر تصير حياة الاوروبيين على شواطىء وادي النيل من الامور المستحيلة ، فانكم هنا وكلاء المدنية الاوروبية في العلوم والفنون ، كما انكم وكلاؤها في التجارة والصناعة ، واليوم الذي تصير فيه انجلترا صاحبة مصر تضع يدها على كل شيء ، غير تاركة شيئا ما لاحد ، وتدعي عندئذ انها الوكيلة الوحيدة للمدنية امام وادي النيل ! » (٢٢) .

فهو اذن وعي عميق بدور المجتمع الدولي في حل القضية المصرية ، وادراك للتناقضات القائمة في ساحة هذا المجتمع الدولي ، ودور الاستفادة منها في تدعيم مركز الحركة الوطنية ، وهو جانب من جوانب نبوغ مصطفى كامل المبكر ، عبر عنه الخديو عباس الثاني عندما كتب في مذكراته : ان

---

(٢١) المرجع السابق . ص ١٠٥ .
(٢٢) المرجع السابق . ص ٤٦٥ .

مصطفى كامل « كان يفهم ـــ وقد درس وعاش في اوروبا ـــ ان بلدا طامحا الى الازدهار يجب ان يسهر بعناية على علاقاته مع البلاد الاجنبية ، ولم يهمل مطلقا ذلك الرأي ، فكان صوته بذلك يذهب بعيدا ، وكان يسمع فيما وراء النيل ! » (٢٣) .

(الاعتماد علـى النفس)

ولكن .. هل ادى ادراك مصطفى كامل لدور تركيـا والجامعة الاسلامية ، ودور تناقضات عدد من الدول الاوروبية مع انجلترا ، هل ادى ادراكه لهذا الدور في حل المسألـة المصرية الـى اهماله دور العنصر الوطنـي والشعب المصري والحركة الوطنية المصرية في هذا الصراع ، كما يقول خصومه ومتهموه ؟؟..

لننظر حتى نصل الى الجواب ..

من المعروف ان نغمة الشكوى من الـدول الاوروبية ، والحديث عن خيبة الامل فيها لم تبدأ في الظهور في تراث مصطفى كامل قبل تراجع فرنسا امام انجلترا في حادثـة « فاشودة » ، عندما طلبت الحكومة الفرنسية مـن قوتهـا العسكرية التي ارسلتها احتلال تلك البلدة السودانية ، كي تفتح بهذا الاحتلال ملف القضية المصرية ، دوليا ، ثم طلبت منها الانسحاب ، تراجعا وتفاديا لمواجهة عسكرية ، ولقد تم هذا الانسحاب في ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨ م ..

ومنذ ذلك الحين بدأ الخديو عباس الثاني سيـاسة مهادنة سلطات الاحتلال في مصر ، والابتعاد عن دعم حركة مصطفى كامل .. ومنذ ذلك التاريخ بدأت نغمة الشكوى من اوروبا ، وعدم الثقة فيها تظهر في تراث مصطفى كامل ..

ثم جاءت حرب البوير ، ووقفت اوروبا ــ وخـاصة المانيا ــ موقفا سلبيا مكن انجلترا من سحق هذه الحركـة الوطنية .. فعلت نغمة اليأس من اوروبا في كلمات مصطفى كامل .. فكتب الى مدام جولييت آدم في ٢١ يونيو سنـة ١٩٠٠ م يقول : « اني لا اجد كلمات تسع اعرابي لـك عـن

---

(٢٣) المرجع السابق . ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

استيائي من اوروبا والمدنية الانسانية التي قضت بهجر البوير البواسل ! أي عار وأي درس لنا نحن الذين طالما كنا نعتمد على اوروبا ؟! » (٢٤) .. ثم كتب في نفس العام : « ان المعتمد على اوروبا واقف على هاوية عميقة القرار ، وان الوطنية تحتاج الى اسلحة عدة ، اذا كانت الشهامة والفضيلة والاقدام اهمها والزمها ، فالحذر والدهاء والتبصر ضرورية لها ، بل وحيوية لكل امة تطلب الحياة او تريد الزيادة في المجد والسؤدد » (٢٥) .

ثم جاء الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ ليقضي على البقية الباقية من آمال مصطفى كامل في ان تلعب اوروبا ، وبالذات فرنسا ، دورا يذكر في اجبار انجلترا على الجلاء .. ولقد ادرك يومئذ ان هذا الاتفاق قد حقق « عزلة » الحركة الوطنية المصرية عن الحكومات الاوروبية التي كانت تعطف عليها ..

ذلك هو تاريخ ظهور نغمة اليأس من نصرة الحكومات الاوروبية لمصر في صراعها ضد الاحتلال .. فهل كان ذلك ، ايضا ، هو تاريخ بدء اعتماد مصطفى كامل على الحركة الوطنية والشعبية داخل مصر ؟ وهل كان هذا التحول في موقفه من الحركة الجماهيرية رد فعل لليأس من اوروبا ؟؟..

ذلك ما يزعمه خصومه ومتهموه .. ولكن تراثه الفكري ومواقفه العملية تدحض هذا الاتهام ..

فقبل حادثة « فاشودة » التي وقعت في ديسمبر سنة ١٨٩٨ .. وبالذات في سنة ١٨٩٥ يكتب مصطفى كامل فيقول : « ان البلاد في حاجة لرؤوس والسنة واقلام مصرية كثيرة .. ولي امل ان ينتشر الشعور في البلاد بسرعة ، **فانه وحده راس مال محرري الامم والشعوب** ، وبدونه لا يستطيع

---

(٢٤) المرجع السابق . ص ٤٣٤ .

(٢٥) اللواء ، في ٢٨ اغسطس سنة ١٩٠٠ م .

خادم ، مهما تكن امانته وقوته ، ان يصل الى الغرض المرجو »
ثم يدعو الى انشاء المدارس الوطنية ، وتأليف الكتب ،
وانشاء الصحف « الصادقة في خدمة قطر هو اثمن واغلى
الاقطار . . » (٢٦) .

وفي مارس سنة ١٨٩٧ ، اي قبل حادث فاشودة بأكثر
من عام ونصف ، يدلي بحديث الى صحفي امريكي فيبرز
دور العامل الداخلي ، الى جانب العامل الخارجي ، في
انتصار الحركة الوطنية ، فيقول : « اننا نبني نجاحنا في
عملنا على امرين : **الاول** : خارجي ، وهو انتهاز الحوادث
الدولية . **والثاني** : داخلي ، وهو نشر العلوم والمعارف بين
اخواننا المصريين ، والتشهير بأخطاء الاحتلال الانجليزي ،
لنرقى بالعقول ، ونبغض الغاصبين الى القلوب ، **وبذلك
تقترب الامة شيئا فشيئا من الوطن حتى تلتف حوله وتصير
واياه جسما واحدا لا قدرة لاية طائفة من الناس او اية حكومة
مهما كانت قوتها ان تعبث بكيانه او تفصل اجزاءه » (٢٧) .**

وفي ٤ يوليو سنة ١٨٩٨ يتحدث عن دور الوطنية
المصرية وحدها في هزيمة الاحتلال ، عندما يكتب الى رئيس
وزراء انجلترا اللورد سالسبري فيقول : « ان مصر كانت في
جميع عصور التاريخ سبب موت الامم الطاغية ، وانها لا محالة
ستكون كذلك في المستقبل ، ولا يمكن ان تنجو انجلترا من
هذا المصير اذا أصرت على احتلال بلادنا ، لانكم **اذا كنتم
تعتبرون ان ارادة انجلترا فوق ارادة اوروبا ، فانه لا بد ان
ياتي يوم تنتصر فيه الوطنية المصرية وحدها على انجلترا
العظيمة القادرة » (٢٨) .**

فمنذ ما قبل حادث « فاشودة » اذن كان وعي مصطفى

---

(٢٦) المؤيد في ٥ اغسطس سنة ١٨٩٥ م .
(٢٧) الرافعي (مصطفى كامل) ص ٩٤ .
(٢٨) المرجع السابق . ص ١٢٠ .

كامل ، الفكري والعملي ، بدور الانسان المصري في تحرير وطنه من الاستعمار ، اما الذي اضافه خذلان الحكومات الاوروبية ، وخاصة فرنسا ، لحركته الوطنية ، فهو انعدام ثقته فيها ، وصرفه النظر عن الآمال التي علقها من قبل عليها — وان لم يصرف النظر عن دور الرأي العام والعناصر الحرة فيها — ومن ثم زيادة تركيزه الجهود في العمل الوطني الداخلي ، وبالذات الاعداد لتكوين وبلورة تيار الوطنية المصرية في حزب سياسي .. ففي ٢٩ يوليه سنة ١٩٠١ م يسأله مراسل صحيفة « الاكلير » الفرنسية :

— « هل المصريون يائسون الآن من مستقبل بلادهم بعد حادثة فاشودة ؟ » .

فيجيبه : « كلا ، اننا لم نيأس ، ولن نيأس ابدا من مستقبل الوطن العزيز ، فاننا نعلم علم اليقين ان مصر مقبرة للامم الطاغية ، ونعرف ان حظ انجلترا فيها سيكون كحظ الدول المتقدمة عليها ، ولكننا اذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا فاننا يائسون كل اليأس من اي تعضيد يأتينا من اوروبا ، واصبحنا نوجه همتنا ونشاطنا لتعليم الامة وتربيتها بانشاء المدارس في انحائها ، حيث ينشأ الشباب على اشرف مبادىء الوطنية والشهامة ، ويتعلمون من الصغر تاريخ العظمة السالفة ويربون على الثقة بالمستقبل والايمان بأن لبلادهم في الايام الآتية مستقبلا باهرا ومقاما عاليا » (٢٩) .

ولقد علت هذه النبرة في تراث مصطفى كامل بعد الاتفاق الودي ، ونموذج ذلك كلماته في احدى خطبه بالاسكندرية في ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ عندما يقول : لقد « ظن الساسة الانجليز انهم اذا اتفقوا مع فرنسا على مسألة مصر طويت اوراق هذه القضية الخطيرة ، وخفت كل صوت ،

---

(٢٩) المراجع السابق ، ص ١٥٦ .

ومات كل امل ، وحل اليأس محل الرجاء ، وصار الشعب المصري اثرا كتلك الآثار القديمة التي يأتي السائحون لرؤيتها كل عام . ولكنهم اخطأوا خطأ كبيرا . نعم ، اخطأ اولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله امهر الناس في تدبير الشئون واعداد الحوادث ومعرفة المستقبل . اخطأوا ، لان العزلة التي صرنا اليها بعثت فينا روحا جديدا ارشدنا الى الحقيقة التي لا قوام لشعب بدونها ، ولا حياة لامة بغيرها ، ولا وجود لنفر من الناس اذا لم يتبعوها ، وهي : **ان الامم لا تنهض الا بنفسها ، ولا تسترد استقلالها الا بجهودها ، وان الشعب ، كالفرد ، لا يكون آمنا على نفسه الا اذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة . نعم ، فقهنا ان الشعوب التي لا ترجو الرقي الا بمعونة جيرانها واصدقائها ، ولا تحفظ استقلالها الا بالاعتماد على حلفائها ، هي شعوب في خطر ، وحياتها مهددة في كل وقت . .** » (٣٠) .

ثم يعمم هذا الموقف ، فيوجه الحديث ، بطريق ضمني الى الدولة العثمانية ، ويقول : « ان المسلمين يخدعون انفسهم كثيرا » ويسيئون الى بلادهم حقيقة اذا اعتقدوا ان سلامتهم في الاعتماد على دولة من الدول ، وان لهم ان يناموا على وسادة الامان والاطمئنان اذا جاملتهم هذه الدولة بكلمة حب وانعطاف لغاية يجهلونها .. انما سلامتهم في ان يعملوا بأنفسهم لصيانة بلادهم وحمايتها بالعلم والعدل والنظام والدستور . فان البلاء ان يكون الاسلام سلاحا بيد الجاهل الغبي يقتل باسمه البريء من المسلمين وغير المسلمين ، ويخرب البلاد ويؤذي العباد ، قائلا : « ان هذا من عمل الاسلام ! » .. ان الاسلام بريء من هذه الفظائع ، ان الاسلام يقضي بكل قوة على هذه القبائح ، الاسلام والجهل عدوان

(٣٠) المرجع السابق . ص ٤٨٤ .

لا يتفقان ، فلا اسلام بغير علم وفضل وعدل ومدنية وانسانية، فلترفع الامم الاسلامية التي لا تزال قادرة على حماية بلادها وصيانة استقلالها رايته ، ولتعمل عمل اليابان ، فتعتمد على الجد وحده ، وتطلب الحياة والسؤدد من جهودها ومساعيها، لا من تعضيد دولة ورعاية حكومة اجنبية ، فان السياسة التي تدفع بهذه الحكومة لمساعدة امة اسلامية في ساعة من ساعات حياتها قد تتغير بتغير الظروف والاحوال فلا تساعدها في ساعة اخرى .. لو نظم المسلمون بلادهم ، واثبتوا للعالم ان الاسلام دين مدنية وعمران وقوة ورفعة لما اعتدى عليه احد ولخطب ودهم كل انسان » (٣١) .

ثم يعود فيركز على قضية مصر ، ودور الاعتماد على النفس في تحقيق الجلاء عنها ، فيقول : ان « الدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية الطاهرة هما المؤديان الى تحقيق آمال الامة المصرية ، فليكن معتقد المصريين جميعا ان نجاة مصر لا تكون الا بهمم المصريين ، وان ارتقاءنا موكول الى عزائمنا ، فلنطلب النهوض من انفسنا ، ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد .. » (٣٢) .

فمصطفى كامل ، كما نرى ، داعية للاعتماد على النفس، سواء أكان ذلك قبل حادث « فاشودة » و « الاتفاق الودي »، او بعدهما .. وان تكن هذه النبرة قد علت في تراثه مع فقدانه الثقة في مساعدة حكومات اوروبا مصر في حصولها على الاستقلال .. ومن ثم فان تهمة اهماله العمل الوطني الداخلي بمصر لاعتماده على تركيا ، ايمانا بشعار الجامعة الاسلامية ومعطياته ، ولاعتماده على الدول الاوروبية .. ان هذه التهمة لا تنهض على اساس متين او سليم ..

---

(٣١) المرجع السابق . ص ٥١١ ، ٥١٢ .
(٣٢) المرجع السابق . ص ٤٩٥ .

(العلاقة بين مصر وتركيا)

ونحن نعتقد ان الذين اتهموا مصطفى كامل بالسعي من وراء شعار الجامعة الاسلامية الى اعادة مصر الـــى حظيرة الامبراطورية العثمانية ، انما كانوا يفترون على الرجل افتراء ليس له ما يبرره ، حتى لو كان هذا المبرر انواعا من الشك او ضروبا من الاوهام .. ذلك ان فكر مصطفى كامل وعقيدته ونشاطه العملي انما كانت تصب جميعا في اقامة ذلك البناء الذي اسهم فيه اكثر من أي معاصر له بناء « القومية المصرية » و « الذاتية المصرية » و « الوطنية المصرية » ، وهي كلهـا احجار عثرة في سبيل اية محاولة تبذل لاعادة البلاد مرة ثانية الى حظيرة امبراطورية آل عثمان ..

هذا عن النتيجة الطبيعية التي يفضي اليها ، بالقطع والحتم ، فكر مصطفى كامل ونشاطه .. وبالطبع فلقد كانت وقائع نضاله تسير في ذات الطريق ..

لقد كانت العلاقة القانونية التي تربط مصر بالدولـة العثمانية ، قبل الاحتلال الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢ م ، علاقة واهية تبرز اساسا في نطاق « الشكل » اكثر مما تتبدى في مضامين جوهرية تحد من الاستقلال الحقيقي للبلاد .. ذلك ان القيود التي فرضتها معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م والفرمان الهمايوني الصادر في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ على الاستقلال الحقيقي الذي تحقق لمصر تحت سلطة محمد علي ،

ان هذه القيود قد زالت بالفرمان الذي صدر مـن السلطان الغازي عبد العزيز خان لصديقه اسماعيل في ٨ يونيو سنة ١٨٧٣ م ، والذي نص فيه ان « يكون هذا الفرمان الجديد قائم مقام الفرمانات السابقة » والذي اعطيت فيه مصر الحرية الكاملة في شئونها الداخلية والخارجية ، بما في ذلك عقد المعاهدات مع الدول الاجنبية « بصورة لا تستلزم اخلال معاهدات الدولة العلية البولتيقية (السياسية) .. » كما الحق هذا الفرمان بحدود مصر — فضلا عن السودان — « قائمقاميتي (سواكن) و (مصوع) وملحقاتها » وادخل حكم هذه الملحقات في اطار مصر ، بحيث يسري عليها نظام توارث العرش الذي حدده هذا الفرمان .. ولم تكن هناك قيود تحد من الاستقلال الحقيقي لمصر ، اللهم الا « الويركو » السنوي البالغ « مائة وخمسين الف كيسة » ، وصدور العملة باسم السلطان ، ووحدة اعلام الجيش المصري مع اعلام الجيش العثماني .. وهي قيود تدخل في نطاق الشكـل اكثر منها في نطاق الامور الجوهرية التي تحد من الاستقلال الحقيقي للبلاد ..

وبعد ذلك بعـامين — فـي ٢٧ جمـادي الاولى سنة ١٢٩٢ هـ — الحقت بحدود الخديوية المصرية مدينة (زيلع) وملحقاتها التابعة للواء الحديدة على الشاطىء اليمنـي للبحر الاحمر !! (٣٣) .

كانت هذه هي العلاقة القانونية التي تحكم صلات مصر بالعثمانيين .. فحتى الذين كانوا يريدون تحرير مصر مـن الانجليز كي تعود « **ولاية ممتازة** » في الاطار العثماني ، لا يمكن القول — بموضوعية وجدية — انهـم كـانوا يريدون

(٣٣) محمد فريد (تاريخ الدولة العلية العثمانية) . ص ٣٠٤ — ٣٠٨ .

استبدال احتلال باحتلال ، لان مصر لم تكن مستعمرة عثمانية قبل ان يحتلها الانجليز سنة ١٨٨٢ م .. فما بالنا ومصطفى كامل ـ كما سيتضح بعد ـ لم يكن ابدا من انصار العودة ـ اية عودة ـ الى حظيرة الامبراطورية العثمانية ؟!.

* ان القرن التاسع عشر ، وخاصة نصفه الثاني كان يشهد قمة الزحف الامبريالي على اجزاء الامبراطورية العثمانية ، ومن ثم فان هذه الامبراطورية وسلطانها ـ رغم تاريخها المظلم مع العالم العربي ـ كانت طرفا تتناقض مصالحه تناقضا عدائيا مع الموجة الامبريالية الزاحفة على بلاد الشرق، ومن ثم فلقد كانت الروابط والعلاقات بالدولة العثمانية احد الاسلحة ـ بصرف النظر عن مدى فعاليتها ـ في مناوأة الاستعمار الاوروبي وعرقلة زحفه على البلاد . ولم يكن هذا الامر خاصا بمصر ، نظرا لاهميتها واهتمام المجتمع الدولي بها ، بل كان قانونا عاما حكم احداث ذلك الصراع ..

فمثلا عندما وضحت نيات فرنسا في استعمار تونس والاستيلاء عليها وجدنا ان احد السبل التي لجأ اليها حكام تونس لعرقلة الغزو الفرنسي هو اعلان ارتباط تونس بالدولة العثمانية ودخولها ضمن امبراطوريتها ، وكما يقول محمد فريد : انه لما بلغ السلطان عبد العزيز : « ان بعض الدول تطمح الى الاستيلاء على تونس اراد ان يؤيد حقوق دولته عليها جهارا ، **ليرتدع من ينظر اليها بسوء ، اذ تصير جزءا من ممالكه المحروسة التي تعهدت الدول بصيانتها في معاهدة باريس المبرمة سنة ١٨٥٦ م** » فأصدر السلطان فرمانا يحدد فيه علاقة تونس بالدولة العثمانية في ٢٤ اكتوبر سنة

١٨٧١ م (٣٤) ، وهو فرمان يعطي لتونس الاستقلال الحقيقي الذي اعطي لمصر في سنة ١٨٧٣ م .

* ومن هنا كان حرص مصطفى كامل على العلاقات الحسنة مع الدولة العثمانية ، لانها الطرف الاول ، بعد الحركة الوطنية المصرية ، صاحب المصلحة في جلاء الانجليز ، وبعدها تأتي دول اوروبا التي تتناقض مصالحها مع انفراد انجلترا بحكم البلاد .. ولقد اعلن مصطفى كامل في خريف سنة ١٨٩٦ : « ان سياسة مصر نحو الدولة العثمانية ، وهي السياسة التي يجري عليها الوطنيون الصادقون ، هي سياسة حسن التقرب منها ، وتوطيد العلاقات الحسنة معها » (٣٥) . وكانت لديه مبررات كثيرة تقف وراء ذلك الموقف الثابت الذي تبناه :

١ ــ فانجلترا كانت دائمة السعي ، ودائبته ايضا ، كي تقنع تركيا بالتنازل عن سيادتها الاسمية على مصر ، وذلك حتى تتخلص من آثار الالتزام القانوني الذي نقضته باحتلالها ارضا عثمانية تنص معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ على وجوب صيانتها .. وهذا الالتزام القانوني هو الذي منع اعلان الحماية على مصر حتى قيام الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ م عندما سقط او اسقط حق تركيا في السيادة بدخولها الحرب الى جانب الالمان ضد الحلفاء .. ومنذ دخول انجلترا مصر ، كان اللورد « دفرين » ، مندوبها السامي في مصر ، يسعى لشراء حق تركيا في « الجزية » التي تدفعها مصر ، وذلك حتى ينقطع هذا الخيط الذي يعرقل سعي انجلترا للكشف عن اهدافها في ضم البلاد والتخلص من تبعات وعودها بالجلاء عنها .

---

(٣٤) المصدر السابق . ص ٣٠٨ .
(٣٥) الرافعي (مصطفى كامل) . ص ٣٦٤ .

ولقد كان المندوب السامي العثماني في مصر ـ احمد مختار باشا الغازي ـ يسعى جهده لمناواة الاحتلال الانجليزي، وعندما كان يفشل كان يقول شعاره الشهير : « انه احتجاج حي على الاحتلال » ؟!.. ومن هنا كانت العلاقات الودية بين الحركة الوطنية المصرية والدولة العثمانية استمساكا بعلاقة قانونية تعرقل ضم مصر لاملاك بريطانيا ، وفي ذات الوقت لا تمثل أي قيد على حرية مصر واستقلالها بعد تحقيق الجلاء ..

٢ ـ ان مصطفى كامل كان يدرك ان الصراع بين السلطة في مصر وبين السلطان العثماني قد استغلته انجلترا في تحقيق احتلالها للبلاد سنة ١٨٨٢ م ، فهم قد اوقعوا بين الخديو توفيق وبين السلطان ، وعندما توجس توفيق خيفة من علاقة عرابي بالسلطان ارتمى في احضان الانجليز .. كان مصطفى كامل يدرك ابعاد هذه اللعبة الاستعمارية واهدافها ، ويعي ان الصراع يجب ان يكون ضد قوات الاحتلال ، وفي ذلك يقول : « ان التاريخ يعلمنا ... انه اذا كان الانجليز قد احتلوا مصر فالسبب في ذلك و لاشك هو النفور والخصام اللذان كانا مستحكمين قبل الاحتلال بين السلطان والخديو السابق توفيق باشا ، وقد نجح الانجليز في التفريق بينهما ، باتباع سياسة ذات وجهين ، فأفهموا السلطان وقتئذ ان خديو مصر عدو له ، يعمل لاسقاطه عن عرش الخلافة ليجلس هو عليه ، كما سعى لذلك من قبل جده الاكبر (محمد علي) ، وافهموا توفيق باشا من جهة اخرى ان السلطان يعمل ضده ، ويسعى لخلعه عن كرسي الخديوية ليعيد مصر ولاية عثمانية ، كما كانت قبل الاسرة الخديوية ، فلما قامت الحركة العرابية رأى الانجليز من تمام المهارة ، وتوسيعا لهوة الشقاق ان يبرهنوا للخديو على كراهية السلطان له ، فسعوا عند

السلطان سعي الصديق حتى حملوه على تقليد عرابي الوسام العثماني الاول ، وعرابي هو الذي كان يدعي يومئذ بأنه المدافع عن حقوق السلطان في مصر ، وقد اوغر هذا صدر توفيق باشا والقاه في احضان الانجليز ... ان سياسة المحاسنة والتقرب من الدولة العثمانية هي السياسة التي في اتباعها سلامة الكرسي الخديوي والوطن المصري .. » (٣٦) .

٣ ــ في سنة ١٨٩٧ م قامت الحرب اليونانية التركية، وو قفت اوروبا تناصر اليونان ، لا من موقع المدافع عن الحرية والاستقلال فقط ، وانما بمشاعر الحروب الصليبية والعداء للشرق والشرقيين .. وكانت القوى المناصرة للانجليز واحتلالهم لمصر تتعاطف مع اليونان ضد تركيا .. ولكن مصطفى كامل والحركة الوطنية اعلنت تعاطفها مع تركيا ، وجمعت الاكتتابات للجيش العثمانى في حركة جماهيرية واسعة .. ولم يكن مصطفى كامل يناصر بموقفه ذلك استعمار تركيا ضد حرية اليونان ، بقدر ما كان يريد الاستفادة من هذه الازمة كي يجعل ملف القضية المصرية يفتح من جديد ، فاذا كانت اوروبا تريد جلاء تركيا عن اليونان ، فلتطلب ، مقابل ذلك ، جلاء الانجليز عن مصر ! ولقد كتب العديد من المقالات، والقى الخطب ، وكتب الرسائل التي جعلت الكثيرين من احرار اوروبا ــ وهم الذين يناصرون اليونان ضد تركيا ــ يقتنعون بوجهة نظره ، بل لقد امتد عمله الجماهيري الى الجاليات الاجنبية في مصر ــ ومنهم الجالية اليونانية ــ حتى اقتنعت بوجهة نظره وحكمتها .. ونحن نرى ان موقفه السياسي هذا انما يقدم نموذجا للنضج السياسي الذي يدرك صاحبه اصول « لعبة » التوازن والصراع في الساحة الدولية الى حد كبير .. يقول مصطفى كامل في شرح موقفه

---

(٣٦) المرجع السابق . ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

من هذه القضية : « **ان اهم معنى سياسي لاكتتاب المصريين لاعانة الجيش العثماني هو القيام بمظاهرة من الامة بأسرها ضد الاحتلال الانجليزي** ، فان المصريين يعلمون علم اليقين ان كل دسائس انجلترا في الشرق ترمي الى امتلاك وادي النيل ، وان الانجليز لما لم يستطيعوا استمالة السلطان اليهم ضد مصر والخديو ، اخذوا يعملون لتقسيم الدولة العثمانية ، آملين اخذ مصر وبلاد العرب ، واعلان سيطرتهم على الاسلام كله ، وسواس اوروبا لا يجهلون مطلقا انه يصبح من العسير علينا حل المسألة المصرية اذا اتفقت تركيا مع الانجليز على احتلالهم وادي النيل .. (٣٧) . انه وان كان **المصري لا يعرف الا وطنا واحدا ، وهو مصر** ، فمن الامور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة ، ويظهروا بذلك امتنانهم لها ، لانها لم ترد ان تكون آلة في يد الانجليز ... (٣٨) . ان مظاهرة الامة المصرية نحو الدولة العلية هي مظاهرة قوية ضد الاحتلال الانجليزي ، **واشتراك افراد الامة على اختلافهم في الاكتتاب للجيش العثماني هو اقتراع عام ضد الانجليز في مصر** ... نحن نسأل الذين ينتقدون اكتتابنا للدولة العلية : لماذا غير الانجليز سياستهم نحو تركيا من سنة ١٨٩٣ ؟ لماذا قاموا من ذلك الحين ضدها ، بعد ان كانوا يعلنون للملأ كله انهم اصدقاؤها واحباء السلطان ؟ أليس ذلك لان السلطان لم يرض العمل معهم ضد مصر وضد اميرها ؟ أليس لانه قدر آمال المصريين ورغائبهم حق قدرها ؟؟.. هبوا ان لا علاقة بين مصر والدولة العلية غير العلائق العادية بين الامم ، أليس من واجباتنا الوطنية ان نعترف بالجميل لدولة رفضت القضاء

---

(٣٧) المرجع السابق . ص ٩٨ ، ٩٩ . (من تصريح لجريدة (برلنر بوست نخرختن) الالمانية) .

(٣٨) المرجع السابق . ص ٩٨ . (من تصريح لجريدة (برلنرتا جبلاط) .

على حياتنا ومساعدة اعدائنا ضدنا ؟! (٣٩) . اننا بسرورنا واحتفالاتنا بالانتصارات التركيــة نسر ونحتفــل بهزيمــة السياسة الانكليزية ، أي بأجل وابهى شيء يتمناه كل مصري وطني على الدوام .! » (٤٠) .

وفي ١٢ مايو سنة ١٨٩٧ م ارسل مصطفى كامل برقية يهنىء فيها السلطان بعيد الاضحى ، وبانتصارات الجيش العثماني ، و « **اعرب فيها عن رجائه ان يشترط السلطان على دول اوروبا لعقد الصلح جلاء الانجليز عن مصر مقابل جلاء الجيش العثماني عن اليونان ! » . وفي ٧ يونيه من نفس العام اتخذت الجماهير التي خطب فيها بالاسكندرية قرارا سياسيا بهذا المعنى ، يطلب الربط بين انسحاب اليونان من تركيا وجلاء الانجليز عن مصر .. (٤١) .**

وفي ١٢ يونيه من نفس العام يكتب الى مدام جولييت آدم يحدثها عن موقفه هذا فيقول : « انك تعلمين خطتي نحو تركيا ، وما أراه واجبا نحوها ، فقد افصحت عــن ذلك فــي خطبتــي ــ (في ٧ يونيــه) ــ **واعترف كثير مــن اصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة القومية لمصر ان تكون حسنــة العلائق مع تركيا ما دام الانجليز محتلين وطننا العزيز » (٤٢) .**

فمصر اذن هي شغلــه الشــاغل ، والعلاقة بتركيا ، والنضال تحت شعار الجامعة الاسلامية ، انما الهدف منــه عرقلة سير المخطط الانجليزي الرامي الى ضم مصر وتكريس

---

(٣٩) المرجع السابق . ص ١٠٠ (من خطبة ألقاها بالاسكندرية في ٧ يونيو سنة ١٨٩٧ م) .

(٤٠) المرجع السابق . ص ١١٣ . (من مقال كتبه في صحيفة (فوسيشة ريتنغ) الالمانية في ٥ اكتوبر سنة ١٨٩٧ م) .

(٤١) المرجع السابق . ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ .

(٤٢) المرجع الســابق . ص ١٠٣

احتلالها ، وايضا العمل على كسب تركيا اكثر واكثر في مناوأة استمرار الاحتلال الانجليزي للبلاد — فالمصري — كما يقول مصطفى كامل — لا يعرف له الا وطنا واحدا ، وهو مصر ؟!.

٤ — وفي سنة ١٨٩٨ م ارادت انجلترا بيع السكك الحديدية في السودان الى شركة بريطانية ، تحت ستار الحاجة الى الاموال اللازمة للانفاق على حملة السودان .. فاعترض الخديو عباس الثاني ، .. ولكن كرومر اصر على تنفيذ الصفقة الاستعمارية المشبوهة .. وعندئذ وجدت مصر في العلاقة القانونية التي تربطها بتركيا سندا لها في موقفها ضد هذا المشروع الانجليزي الذي يمهد لسيطرتهم على السودان ، فاستعانت مصر بالدولة العثمانية كي تتدخل في الامر ، وجاء جواب السلطان مؤيدا لموقف مصر ، حيث ان « السكك الحديدية انشئت للجيش ، وان بيعها مخالف للسيادة التركية » (٤٣) فتراجع اللورد كرومر ولم تتم الصفقة ... وكان هذا الموقف نموذجا لحسن استخدام العلاقة مع تركيا في عرقلة نفوذ الانجليز ومشاريعهم في وادي النيل .

٥ — وعندما عقدت اتفاقية السودان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ م ، تلك الاتفاقية التي ظاهرها مشاركة انجلترا لمصر في حكم السودان ، وباطنها انفراد الانجليز باستعماره ، رأى مصطفى كامل في العلاقة مع تركيا السند القانوني لبطلان هذه الاتفاقية ، فكتب يقول : « ان اتفاقية السودان المزعومة بين مصر وانجلترا قد جاءت برهانا جديدا على عدم مراعاة انجلترا للعهود والمؤتمرات ، الشيء الذي يعتبره المصريون جميعا باطلا ، لانه مخالف للنظامات الاوروبية والقوانين

---

(٤٣) المرجع السابق . ص ٣٣٣ ، ٣٣٤

الدولية . فانه ، اولا : **ليس لحكومة مصر أي حق في عقد اتفاقية كهذه الاتفاقية ، لانها تخالف نصوص الفرمانات السلطانية الصادرة الى خديو مصر ... ان نصوص الفرمانات صريحة في ان ليس لمصر الحق في التنازل او استبعاد أي جزء من اجزائها عنها بارادتها** ... اننا ننتظر ان تعضد اوروبا الحكومة العثمانية التي لا بد ان تحتج احتجاجا شديدا على هذا العمل المخالف للعهود والمعاهدات والشرف كل المخالفة ... (٤٤) .

ولقد ظل هذا المنطق الذي حكم به مصطفى كامل ببطلان اتفاقية السودان ، ظل هو منطق الحركة الوطنية المصرية حتى بعد وفاته بسنوات طويلة ، وحتى « الوفد المصري » الذي تألف في نهاية سنة ١٩١٨ م كانت حجته على بطلان هذه الاتفاقية ان الحكومة المصرية التي عقدتها – وهي حكومة مصطفى فهمي العميلة للانجليز – ما كان في اختصاصها ان تعقد مثل هذه الاتفاقية التي تنازلت فيها عن حقوق هي من صلب السيادة العثمانية على تلك البلاد ..

٦ – وفي سنة ١٩٠٦ م ارادت تركيا ان تمد خطا حديديا يربط بين « معان » و « العقبة » ، ورأى الانجليز ان امتداد هذا الخط على حدود مصر الشرقية يقوي من مركز العثمانيين ، فأقام الانجليز نقطا عسكرية على خط « العريش – العقبة » ، واحتل الاتراك موقع « طابة » غربي « تبة » العقبة بثمانية اميال ، وحدث نزاع بين الدولتين ، رأت انجلترا ان تظهر فيه بمظهر المحامي عن حدود مصر وأراضيها ، ورأى العثمانيون فيه اثارة قضية علاقتهم القانونية بمصر ، وعدم شرعية الاحتلال الانجليزي لها ، ورأى فيه مصطفى

---

(٤٤) المرجع السابق . ص ١٣٨ ، ١٣٩ (من مقال في صحيفة (الجولوا) الفرنسية في ٦ فبراير سنة ١٨٩٩ م) .

كامل مناسبة لفتح ملف القضية المصرية مـن جديد .. فناصر موقف تركيا وطالب الانجليز بالجلاء .. وهاجم الذين يدعون الى الابتعاد عن تركيا ، قائلا : « ان اتفاقنا مع تركيا كان دائما اساسا من اسس سياستنا ... وانـي اسأل الذين ينكرون هذه الحقيقة ان يفكروا لحظة فيما يؤول اليه حال مصر لو عقدت تركيا في يوم من الايام اتفاقا مع انجلترا مشابها للاتفاق الودي الفرنسي ـ الانجليزي ؟ الا تفقد بلادنا عندئذ البقية الباقية من استقلالها ؟ فكيف مع هذا يندهش البعض من الروابط التي تربط مصر بتركيا ؟ أوليس هذا الارتباط في ذاته احسن احتجاج على استمرار الاحتلال بغير حق ؟ اني اسأل الذين لا يكتفون بانتقاد سياستنا ، بل يتحاملون علينا ، ان يجيبوني : لماذا يجدون من الامور المعقولة الطبيعية تحالف فرنسا مع روسيا ، واتفاقها مع انجلترا ، ويعتبرون من الجنايات ومخالفة الوطنية الحقة اتفاقنا مع تركيا؟!»(٤٥) .

فهي مصلحة مصر اذن التي تقضي باقامة العلاقات الحسنة بين مصر وتركيا ، وشعار الجامعة الاسلامية لم يكن يعني عند مصطفى كامل العمل على اعادة مصر الـى حظيرة الدولة العثمانية ، كما زعم خصومه ومتهموه ، بل ان الرجل يحسم القول في **نوع** هذه العلاقة الحسنة المنشودة ، فيقول انها « **المحالفة** » ، لا « **التبعية** » ، وذلك عندما يخطب فـي ذكرى تأسيس الدولة العثمانية في ٢٧ يناير سنة ١٩٠٧ فيقول : « **يستحيل علينا ان يطلب واحد منا مالكا اجنبيا عنا، فنحن لا نود الا ان نكون قوة محالفة للدولة العلية ، ننصرها وتنصرنا ، ونعتز بها وتعتز بنا** .. » (٤٦) .

---

(٤٥) المرجع السابق . ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ (من مقال في صحيفة (الطان) الفرنسية في ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ م) .

(٤٦) المرجع السابق . ص ٣٦٧ .

فهو اذن داعية للاستقلال المصري التام .. ولـم يكن شعار الجامعة الاسلامية عنده يعني العمل على استبدال نير الانجليز بنير العثمانيين ..

(بين فكر مصطفى كامل وفكر الدولة العثمانية)

الامر المؤكد ، والذي نحرص على ابرازه وتدعيمه بالادلة والبراهين ، هو ان مضمون شعار الجامعة الاسلامية عند مصطفى كامل لم يكن هو مضمون هذا الشعار عند السلطان عبد الحميد وغيره من العثمانيين ودعاة التبعية لسلطنة آل عثمان .. ذلك أن مضمون هذا الشعار كما كان يعنيه العثمانيون ويهدفون اليه كان يعني معارضة حركات الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية ، سواء أكان الدافع اليها والمحرك لها طموح شخصي للولاة الذين يقومون بها او سمات قومية قد اخذت في التبلور والنضوج لدى الامم والاقطار التي تشرع في الاستقلال والانفصال .. ومن هذا المنطلق كان شعار الجامعة الاسلامية ، بمضمونه العثماني ، يعني الرفض لتلك التجربة التي قاد بها محمد علي باشا مصر في طريق الاستقلال عن التبعية المباشرة للامبراطورية العثمانية .. كما كان يعني كذلك السعي لخفض صوت العقيدة الوطنية والروح القومية لحساب الروابط الدينية التي تجمع شعوب الامبراطورية المتعددة الاجناس ، والتي لا يربطها بحكامها سوى رباط الدين — فاذا كانت دعوة مصطفى كامل وافكاره ونشاطه العملي قد انصب بشكل كلي واساسي على السعي لاستقلال مصر الشام ، والتمجيد لتجربة محمد علي الاستقلالية ، وكذلك السعي لغرس العقيدة الوطنية المصرية والقومية المصرية في عقول الشعب المصري ووجدانه ... اذا كانت دعوة مصطفى كامل ونشاطه ، بل وحياته ، انما كانت

تجسيدا للدعوة الاستقلال والوطنية والقومية ، فان الطريق الذي سار فيه هو، بالتأكيد، غير طريق العثمانية والعثمانيين، ومن ثم فان مضمون شعار الجامعة الاسلامية عنده هو ، بالتأكيد ، مغاير ، بل مناقض ، من هذه الزاوية الاستراتيجية، لمضمون هذا الشعار لدى العثمانيين .. فالاتفاق هنا لا يتعدى الاتفاق في «تكتيك» المواجهة المشتركة ضد الاستعمار الاوروبي ، عدوهما المشترك ، اما بعد ذلك فان مصطفى كامل باعث الروح الوطنية والقومية ، بينما الفلسفة التي تقوم عليها الدولة العثمانية هي استبدال العقيدة الوطنية والرابطة القومية برابطة الدين .. ومن هنا نستطيع ان نقول : ان مضمون شعار الجامعة الاسلامية عند مصطفى كامل لم يكن فقط مناقضا لمضمونه لدى العثمانيين ، بل وكان مضمونه عنده اكثر تقدما ومسايرة لروح العصر ، عصر القوميات ، منه عند التيار الذي مثله وقاده جمال الدين الافغاني والامام محمد عبده ..

اما الدلائل التي تؤكد ان دعوة مصطفى كامل وافكاره ونشاطه العملي انما كانت في اطار العقيدة الوطنية والبعث القومي والعمل لبلورة قسمات الامة المصرية .. فانها كثيرة جدا ، تطالعنا في كل لحظة من لحظات حياته ، وصفحة من صفحات نضاله .. وهذه بعض الامثلة ذات الدلالة في هذا المقام :

تقييم تجربة محمد علي الاستقلالية

١ — في الوقت الذي كان فيه الحديث عن تجربة مصر الاستقلالية في عهد محمد علي يثير حفيظة دعاة الجامعة الاسلامية ، بمفهومها العثماني ، بل ويوغر صدور سلاطين آل عثمان ضد حكام مصر ، كان تقييم مصطفى كامل لهذه

التجربة تقييم المدرك لابعادهـا القومية ودورهـا في تقـدم مصر قوميا وحضاريا ، فلقد كان يتخذ منها نموذجا يدعـو لاحتذائه ، ويفضل هذا النموذج لا على الوضع الذي انتهت اليه مصر في ظل الاحتلال الانجليزي ، بل ويفضله كذلك على وضعها السابق على حكم محمد علي لها ، عندما كانت ولاية تابعة لآل عثمان !!.. فهو يرى ان محمد علي قد اسهم اسهاما بارزا في بناء وحدة مصر القومية عندما « جمع شملها ، بعد ان كانت مفرقة موزعة على المماليك .. **فصارت وطنا واحدا لامة واحدة يجمعها لواء واحد** » (٤٧) ثم يمضي ليفصل فـي اوجه الحياة المصرية مقارنا بين عهدها العثماني وعهدها الذي استقلت فيه زمن محمد علي ، فيقول : « ارجعوا البصر كرة اخرى الى مصر قبل عصر محمد علي ، وقارنوا بين حالها في ذلك الحين وما صار اليه في عهده ، تجدوا ارضا بلقعا تحولت الى رياض وجنان ، وفضاء واسعا صار فيـه الالوف والملايين يحرثون الارض ويزرعون ويستثمرون ، وشقاء تولى ونعيما أقام ، وفوضى زالت وامنا استتب ، وزراعات جديدة دخلت الى البلاد فأحيتها وانمت ثروتها وملأت نواحيها رغدا وسعدا ... انظروا كيف سار محمد علي بمصر ، وكيف انقذها مـن مهاوي الهلاك ، وكيف اخرجها من عالم الظلمات الى النور ، وكيف فتح بها وضرب وغلب ، وكيف ساد ولم يُسَد ، وكيف ملأ من جنودها الديار ، واخضع لسلطانها البحار والانهار ، وكيف رفـع ذكرها الى أعلى منار ، وجعلها **عاصمة الشرق ومصدر الانوار** ، وكيف ابهج هذا الثغر بتزاحم الجواري في ثغره ؟! وعمم المعامل والمصانع فـى المدن والقـرى ، ونشر المدارس والمكاتب في انحاء البلاد ، واخرج من ابنائها نجوم علم يهتدى بهم ولا يضل بنورهم ؟.. » .

(٤٧) المرجع السابق . ص ٤٧٢ . (من خطبة له في ذكرى اختيار الشعب المصري محمد علي حاكما لمصر ــ ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ م) .

ثم يمضي للحديث عن دور العنصر الوطني المصري في هذه النهضة القومية المصرية فيتساءل : « هل استعان محمد علي بغير المصري على تحقيق غاياته ؟.. كلا ! لم يصل الى ذروة المعالي واقصى غايات الرجال الا بعقلك وبأسك ايها المصري العزيز .. السر في هذا الانقلاب وذلك التغير ان الرجل العظيم الذي تولى امر مصر ادرك بواسع عقله ان في امتها كنوزا من الشهامة والذكاء مدفونة فكشف عنها الغطاء ، واظهرها للعالمين ساطعة بهية تخطف الابصار .! » (٤٨) .

وبالتأكيد فان هذا التقييم لتجربة محمد علي الاستقلالية لم يكن ليتفق مع الموقف العثماني من هذا الحدث الذي شهدته مصر في مطلع القرن الماضي ، والذي بدأت به عصرها الحديث ..

٢ ـ دور مصر التاريخي

وحديث مصطفى كامل عن دور مصر الرائد والقائد والمتميز على مر العصور والتاريخ ، هو بالتأكيد لا ينسجم مع الموقف العثماني الذي يعطي القيادة للعنصر التركي ، ويجعل من مصر وكل اجزاء الامبراطورية مجرد توابع للعثمانيين ..

فعنده « اننا نطلب الاستقلال لتكون بلادنا مصدر النور والعرفان **في الشرق كله** » .. وعنده ان « الامة المصرية قد سبقت كافة الامم في العلم والمدنية والادب ، وكان شعبها استاذ الشعوب البشرية ومربي العالم كله » ... وعنده ان « مصر هي مهد المدنية والنور ، ومصدر كل تقدم انساني ، اننا الوارثون لمدنيتين كبيرتين : المدنية الفرعونية والمدنية العربية ، فمن حقوقنا ومن واجباتنا ان نجلس بين الامم

---

(٤٨) المرجع السابق . ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

المتمدنة ، ونطالب بحقنا في هذه المدنية .! (٤٩)

فنحن هنا بازاء شحنات من الروح الوطنية والمجد القومي ، تتحدث عن الامة المصرية حديثا يتناقض مع الغايات العثمانية من وراء شعار الجامعة الاسلامية الذي ارادوه نفيا للوطنية والقومية من اقطار الامبراطورية وولاياتها .

٣ ـ مصر للمصريين

ومصر هذه صاحبة الدور الرائد المتميز عبر التاريخ ، ناضل مصطفى كامل حتى تكون للمصريين من اهلها ، لا لاي حاكم اجنبي عنها ، مهما كانت بينه وبين اهلها من روابط او علاقات ... فعلى العكس من مفهوم شعار الجامعة الاسلامية عند العثمانيين ، الذي كان يعني فرض سلطتهم على كل اجزاء العالم الاسلامي ، ومنه مصر ، وعلى عكس مفهوم هذا الشعار كما عبرت عنه (العروة الوثقى) عندما تحدثت عن قبول المغربي لسلطة التركي ، والهندي لرياسة الافغاني ، والفارسي لحكومة العربي .. الخ .. الخ .. لوجود رابطة الدين والمعتقد بينهم .. على عكس هذا المفهوم لهذا الشعار نجد ان مصطفى كامل قد اعلن في وضوح وحسم ان مصر للمصريين ، وان المصريين لمصر ، وان شعار الجامعة الاسلامية لا يمكن ان يعدو نطاق التضامن والتحالف ضد الاستعمار الى نطاق التبعية او القبول بسلطة غير مصرية على ارض مصر ، او استبدال النير الانجليزي بالنير العثماني ، ذلك لان « سلاسل الاستعباد هي سلاسل على كل حال، سواء كانت من ذهب او من حديد !! » (٥٠) .

---

(٤٩) المرجع السابق . ص ٥٠٧ ، ٤٣٢ ، ٢٤٥ .

(٥٠) المرجع السابق. ص ٤٣٠ (من رسالة بعث بها مصطفى كامل الى رئيس الوزراء الانجليزي هنري كامبل بانرمان سنة ١٩٠٧ م) .

فعنده ان العلاقة التي اقامها العثمانيون بمصر قبل استقلالها على يد محمد علي هي « احتلال » ، وان مصر لا تريد ان تستبدل احتلالا باحتلال ، ذلك « **لاننا نبغض المحتل من حيث هو محتل ، ولو كان اقرب الناس الينا** ، لاننا امة حية متمدنة ، **نريد ان نحكم انفسنا بانفسنا** ولا نرضى ان نبقى قصرا تحت حكم وصي ننظر الى تقدم الامم الاخرى نظرة الكئيب التعيس دون ان نستطيع محاكاتها ومجاراتها» (٥١) .

عندما يتهمه الانجليز – في مجلة « الديلي جرافيك » – بالسعي لاستبدال النير الانجليزي بالنير العثماني يرد في نفس المجلة بمقال عنوانه (مصر للمصريين) – ١٥ اغسطس سنة ١٩٠٦ م – يقول فيه : « **اننا نريد ان تكون مصر المصريين ، ونرفض قطعيا كل نير اجنبي** ، وان الذين يظنون ان الشعب المصري يمقت انجلترا لانها دولة مسيحية ليسوا الا مخطئين خطأ جسيما ، فان الشعب المصري يمقت المحتل الذي قوض دعائم استقلال وطنه ، واذا كانت مصر محتلة بأي دولة اخرى لكان شعور المصريين هو ذاته ، لان ضياع الاستقلال لا يمكن احتماله بأي حال من الاحوال .. » (٥٢) .

وفي ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧ م يكتب الى رئيس وزراء انجلترا ، السير هنري كامبل بانرمان ، يقول : « لعل دروس التاريخ لا تكفي في نظر انصار التوسع في الاستعمار من الانجليز لان تثبت لهم **انه لا يمكن ان يملك مصر احد سوى المصريين** ، الا ان يقظة الامة المصرية من شأنها ان تظهر لهم من الآن مستقبلها القائم على الحرية والاستقلال » (٥٣) .

---

(٥١) المرجع السابق . ص ٤٥٦ (من خطبة له بالاسكندرية في ٣ مارس سنة ١٨٩٦ م) .

(٥٢) المرجع السابق . ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٥٣) المرجع السابق . ص ٢٥٤ .

وفي ٦ اكتوبر من نفس العام يكتب ليرد على احد محرري صحيفة (لاند بندنس بلج) ، فيقول : « ان المحرر اخطأ كثيرا بقوله : اننا نريد حرية مصر لاعادتها الى حكم الاتراك . **فقد صرحنا الوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين ، وبأن انعطافنا او نفورنا من دولة لا يؤثر شيئا على هذا المبدأ الرئيسي لحياتنا وافعالنا** .. ولست اجد لافحام خصومي الا طرح هذا السؤال البسيط عليهم .. ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا ؟ او تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية ـ الانجليزية ؟ الا تصير ولاية انجليزية ؟ اذن ، فلماذا يندهش الكاتب من كوننا نجعل علائقنا مع تركيا حسنة ، ونسعى لنيل الوسائل التي قد تفيدنا وتنفعنا ؟ واذا كانت الدول العظمى قد اتبعت الآن سياسة التحالف ، فمن ينكر على مصر المظلومة المهضومة اتباعها لهذه الخطة ؟؟ » (٥٤) .

ثم يعرض لنفس القضية مرة اخرى في خطابه بالاسكندرية ـ ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ م ـ فيقول : « رمانا الطاعنون بأننا نريد ان نخرج الانجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية ، أي اننا نريد تغيير الحاكمين ، لا طلب الاستقلال والحكم الذاتي ، وما هذه التهمة الا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التي نقلت الى مصر من مدة قرن من الزمان ما زادتنا الا تمسكا بالعبودية والمذلة ، وان معرفتنا لحقوق الامم وواجباتها لم ترشحنا الا ان نكون عبيدا أرقاء ! فهذه التهمة هي سبة للمدنية والمتمدنين ، وقضاء على الامة المصرية بأنها لا ترقي ابدا ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب ، لانه اذا كان المتعلمون من ابنائها يطلبون احلال نير محل نير ، واستبدال استعباد باستعباد ، فكيف يطمع طامع في تقدمها وارتقائها

---

(٥٤) (اللواء) في ٦ اكتوبر سنة ١٩٠٧ م .

ووجود ضمير اهلي ـ (وطني) ـ لها ؟!. ان القائلين بذلك يدعون الناس لان يسخروا من عقولهم ومداركهم ، لان الصومالي الحبشي وكافة الامم التي هي دون الامة المصرية بمراحل في العلم والادب والشعور دافعت عن استقلالها اجمل دفاع ، وبرهنت للعالم طرا ان حب الوطن فطرة فطر الناس عليها ، وان الانسان لا يحتاج الى علم ولا الى ادب ليشعر بهذا الشعور .

فليعلم اعداء مصر اننا نطالب لها الاستقلال ، ونطلب لها ذلك الاستقلال باعلى اصواتنا ، وعلى مسمع من امم الارض كلها ، واننا اذا اخلصنا الود لامة او للدولة فانما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة بان من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون . واذا كانت انجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية ، وتغير سياستها نحوها تغييرا محسوسا ، فمن الذي يلوم المصريين على ان يكونوا أقرب الناس من تركيا قولا و فعلا ، وان يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا ؟! » (٥٥) .

هكذا رأى مصطفى كامل دور مصر ، وهكذا رفع ، دائما وابدا ، شعار (مصر للمصريين) ، ولم يكن شعار الجامعة الاسلامية يعني عنده الخروج من نطاق التضامن والتحالف السياسي مع العثمانيين ضد الاستعمار الانجليزي الى نطاق العودة بمصر الى حظيرة الدولة العثمانية بأي حال من الاحوال .. فهو رائد للحركة الوطنية ، ومفجر للاحاسيس القومية ، ودوره في بلورة قسمات الامة المصرية الحديثة دور رائد وعظيم بكل المقاييس ، ولقد ابصر ذلك الجانب من فكره ونشاطه بعض الذين كتبوا عنه وعن عصره عندما وصفوه بأنه « **كان ناشرا مقداما ، من الطراز الاول ، لدعوة العصبية الجنسية ـ (القومية) ـ لا يني له عزم ولا يفل له حزم ..**

---

(٥٥) الرافعي (مصطفى كامل) ص ٥٠٨ ، ٥٠٩ .

كان لا نظير له في العصبيـــة الجنسية ــ (القومية) ــ المصرية !! » (٥٦) .

ومن هنا ايضا كانت دقة ذلك الوصف الذي وصفته به صحيفة « الديبا » الفرنسية عندما قالت عنه : « انه هـو الذي انشأ الروح المصرية من العدم ، لم تكن مصر قبله الا قسما من الاقسام الجغرافية ، ولـم يكـن سكانها الا فرقا منقسمين بعوامل الجنس والدين .. لقد تولى محمد علي شئون مصر ... فتمكن من انشاء جنسية ــ (قومية) ــ مصرية ممتازة عن الجنسية العثمانية ، ولكنه لم ينشىء أمة مصرية .. لقد انشأ مصطفى كامل الوطن المصري ، فهو بذلك قد أتم اشرف عمل ادبي يخلد له الذكر الحسن على مـر الاجيال ، واضاف الى هذا العمل الادبي عملا سياسيا ، وهو السعي في تحرير مصر من رق الاحتلال الانجليزي ، وجعلها اهلا لهذا التحرير » (٥٧) .

فهل بعد ذلك يجوز اتهام الرجل الذي اكتملت على يديه نشأة الامة المصرية الحديثة بأنه كان داعية لطمس معالم هذه الامة المتميزة بالعودة بها الى حظيرة دولة آل عثمان تحت شعار الجامعة الاسلامية ؟! ان مصطفى كامل هـو آخر من يوجه اليه هذا الاتهام ..!

٤ ــ عقيدة الوطنية المصرية

وفكرة «**الوطنية المصرية**» التي الح على ابرازها مصطفى كامل ، واتخذ منها عقيدة ناضل لغرسها في عقول الشعب ووجدانه ، ورأى فيها الخيوط التي لا تبلى ، والتي يستطيع

---

(٥٦) (حاضر العالم الاسلامي) مجلد ٢ ج ٤ ص ٩٥ .

(٥٧) الرافعي (مصطفى كامل) ص ٤٤٦ (عن مقال صحيفة « الديبا » في ابريل سنة ١٩٠٨ م) .

الشعب بواسطتها ان يقترب من الوطن ويتحد به ويدافع عنه وينقذه من براثن الاحتلال .. فكرة « الوطنية المصرية » هذه قد لعبت ، على يد مصطفى كامل ، ابرز الادوار في بلورة قسمات الامة وتوحيدها ، فاذا علمنا ان الرجل قد اتخذ منها حجر الاساس في دعوته ونشاطه ، وانها كانت لديه الفكرة المحورية التي يدور حولها في كل ما يصدر عنه ، وانه قد جعلها العقيدة والايديولوجية للتيار السياسي الذي كونه وبلوره ، اذا علمنا دوره كمفكر من مفكري البعث القومي ، وادركنا مدى **التناقض الموضوعي** بينه وبين مفهوم الجامعة الاسلامية عند العثمانيين وغيرهم من الذين رأوا في وحدة العقيدة الدينية البديل الاسلامي للقومية والارتباط بوطن معين من اوطان المسلمين .

ولما كانت الفترة الزمنية التي ظهر فيها مصطفى كامل قد تميزت بذلك اليأس القاتل الذي اطبق على الامة المصرية ، بل والشرق بأجمعه ، بعد الاحتلال الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢م ، فلقد استدعت متطلبات اليقظة الوطنية والقومية من رائدها مصطفى كامل ان لا يغفل الحديث عن الوطنية في محفل من المحافل ، او مقال من المقالات ، او لحظة من اللحظات .. ومن كلماته ، في الوطنية ، التي بلغت في العمق والشاعرية مستوى اجود الشعر لاعظم الشعراء نجد الكثير من العبارات والصياغات التي تركز على **ان الوطنية هي العقيدة التي دعا** المصريين الى اعتناقها .. فهو القائل :

« انني اريد ان اوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة ؟! ... انني اجد حياتي في هذه **العقيدة الوطنية** ، وبغير هذه **الشعلة الوطنية** لا استطيع الحياة ... انني لا اترك لحظة تمر من حياتي دون ان اغرس حب مصرنا العزيزة في قلوب مواطني ... ان روحي تتغذى من **حب الوطن** ، وبغيره لا

استطيع الحياة ... وما دامت هذه **الشعلة الوطنية** تغذيني وتؤازرني فاني لا اهــاب شيئــا ولا احداً في الوجود ... **الوطنية** : هي العماد لكل مملكة ، والاساس المتين لكل دولة ، هي الروح العاملة في كل بلاد العالم المتمدن ، **الوطنية** : هي ام المعجزات وأصل كل تقدم وارتقاء ، **الوطنية** : هي التــي تنقل الشعب الجبلي الى الحضارة والعمران والاقتدار وسمو القدر في قليل من الاعوام ، **الوطنية** : هي الدم فــي عروق الامم ، والحياة لكل ذي حياة ، **الوطنية** : هي الغذاء الذي يحتاج اليه جسم مصر وروحها قبل كل غذاء .. لا قوام لامة ولا سلامة لبلاد الا بقوة **العقيدة الوطنية** ... يجب ان تكون خدام **العقيدة الوطنية** ... ان ادخال **الروح الوطنية** فــي نفوس المصريين .. لهو اكبر الاعمال .... ان مصر جديرة بأن تحب بكل قوة ، بكل عاطفة ، بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل حياة !! » (٥٨) .

واذا كان الذين يؤرخــون لتبلــور الوطنية المصريــة وقسمات الامة المصرية الحديثة يضعون فكر المرحوم الاستاذ احمد لطفي السيد بالمكان الممتاز في هذا الحقل مــن حقول الفكر ، فان كلمات لطفي السيد عن مصطفى كامل خير شهادة على دوره في بلورة حركة « الوطنية المصرية » التي ارتكزت عليها النشأة الحديثة للامة المصرية .. يقول لطفي السيد : « ان مصطفى كامــل كــان شعــاره : **الوطنية** ، ووسيلته : **الوطنية** ، وغرضه : **الوطنية** ، وكلماته : **الوطنية** ، وكتاباته : **الوطنية** ، وحياته : **الوطنية** .. حتى لبسها ولبسته ، فصار بينهما التلازم الذهني والعرفي ، فاذا ذكرت مصطفى كامل بخير فانما تطري **الوطنية** ، واذا قلت : **الوطنية** ، فان اول ما

---

(٥٨) المرجع السابق . ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ، ٤٨١ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ ، ٤٨٩ .

يتمثل في خيالك شخص مصطفى كامل ، فكأنما هو والوطنية شيء واحد ... ان مصطفى كامل كان تمثال الوطنية ... ان مصطفى كامل كان مصريا لجميع المصريين ..! » (٥٩) .

وعنه قالت مدام جولييت آدم : « انه جدير بلقب « الوطني » الذي اسبغته عليه امته في كل شيء : الخطيب الوطني ، ورئيس الحزب الوطني .. لقد كان يقول : ان هذا اللقب يحييني بحياة بلادي كلها ، وهو جزائي الاعظم؟!» (٦٠) .

فأين من هذا الفكر الذي اتخذ من « الوطنية المصرية » عقيدة صارت هي المحور والاساس والغاية والوسيلة ، اين منه ذلك الفكر الآخر الذي تمثل في المضمون العثماني لشعار الجامعة الاسلامية ، والذي كان يناصب الفكر الوطني والقومي العداء ؟!

٥ ـ بين الوطنية والدين

واذا كان هذا هو مبلغ الوضوح والحسم الذي تميز به فكر مصطفى كامل عن « الوطنية المصرية » ، فان خصومه قد وجدوا لانفسهم شبهة تعلقوا بها وقالوا : انه يخلط الوطنية بالدين ، وان ايمانه بشعار الجامعة الاسلامية قد جعل حديثه، في الغالب ، عن المسلمين فقط ، وانه يدعو الى ادخال الدين في التعليم ... قالوا ذلك ، واتخذوا منه سبيلا للطعن في وطنيته .. اما نحن فاننا لا نرى لهذه الشبهة اساسا متينا تنهض عليه وتثبت من فوقه في البحث والتمحيص .. ذلك اننا نعتقد ان « الوطنية المصرية » كانت هي « العقيدة » التي بشر بها مصطفى كامل، وليست «العقيدة الدينية الاسلامية»،

---

(٥٩) المرجع السابق . ص ٤٤٤ .
(٦٠) المرجع السابق . ص ٤٤٦ .

وان دعوته انما كانت لمصر بكل من فيها بصرف النظر عن اختلاف المذاهب والاديان ..

فهو لم يخلط الدين بالوطنية ، بالمعنى الذي نراه عند دعاة « الحكم الديني » وانصار « الحق الالهي » ، سواء منهم اولئك الذين عاشوا في العصور الوسطى او في العصر الحديث .. وانما الذي اراد ان يقوله هو ان « الدين » لا يتناقض مع « الوطنية » ، وان تلازمهما وزمالتهما في نفس الانسان المتدين بأي دين من الاديان حقيقة ظاهرة للعيان — وهو بذلك انما كان يرد بشكل مباشر على تيار التجديد والعصرية الذي يسقط من حسابه ما في الدين من طاقات تستطيع ان تؤدي دورا هاما حتى في ساحة النضال الوطني، كما كان يرد ، بشكل غير مباشر ، على دعاة الجامعة الاسلامية بمضمونها اللاقومي ، عندما انكروا اهمية الرابطة القومية والوطنية ، وراوا في العقيدة الدينية بديلا لها ...

وهو يعرض لهذه القضية ، ويناقش خصوم فكرته عنها فيقول : « قد يظن بعض الناس ان الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وان الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ، ويفديه بروحه وما تملك يداه.. » (٦١) .

اليس في قوله هذا الرد ، غير المباشر ، على دعاة الجامعة الاسلامية الذين يرون ان « الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده » سواء عنده ارض مصر او الشام او الهند او ايران ؟ وسواء عنده أكان الحاكم لوطنه تركيا ام كرديا ام افغانيا ؟! المهم هو عقيدة الوطن ودين الحكام ؟!..

اما دعوته الى ادخال الدين في التعليم ، — وهي ، كما نعلم ، غير الدعوة الى التعليم الديني — فان هدفه من

---

(٦١) المرجع السابق . ص ١٤٨ ، ١٤٩ (من خطبته في الاسكندرية في ٢ يونيو سنة ١٩٠٠ م) .

ورائها ـ علاوة على تدينه وايمانه بما في الاسلام من طاقات التقدم والمدنية والعمران ـ كان القضاء على التعصب الديني الذي شاع في العصور المظلمة لهذه الامة ، والذي كان يهدد الوحدة الوطنية الضرورية لتحرير البلاد من الاستعمار ..

فلقد ادرك ان الخرافات التي تراكمت على الفكر الاسلامي قد شوهته وعطلت ما فيه من طاقات ، وان هذه الخرافات هي التي تقف وراء التعصب الديني المفتت للوحدة الوطنية ، وان السبيل الى التخلص من هذه الخرافات هو اشاعة « الحقيقة الدينية » بواسطة التربية والتعليم ... وهو يطرح فكره هذا ويناقش خصومه فيه فيقول : لقد « قال اعداؤنا : اننا نخلط الاسلام بالوطنية ، ونتكلم دائما عن المسلمين ، ونطلب ادخال الدين في التعليم ، وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم ... ولكن ... لماذا يكون الانجليزي وطنيا وبروتستانيا في آن واحد ، ولا يكون المصري المسلم وطنيا ومسلما ؟ الا تكون الوطنية صحيحة الا اذا قضت على الدين ومحبته ؟ ... ثم ... **اننا اذا طلبنا ارشاد امتنا الى الحقيقة الدينية ، فما ذلك الا لان الاضاليل والاكاذيب والخزعبلات التي راجت بين العامة باسم الدين قلبت حقيقة هذا الدين ، فصار الجهل والتأخر والانحطاط وكل الآفات مما يلقى على الدين وينسب اليه ، والدين منه براء . لذلك كان من المستحيل احياء الامة وانهاضها بغير الحقيقة الدينية ، لانه لا سبيل لابادة جيش الباطل الذي ألف ونظم باسم الدين الا بالدين نفسه . فالتعليم الديني ليس فرضا من الوجهة الدينية فحسب ، بل هو كذلك ايضا من الوجهة الوطنية ... ان بث الحقيقة الدينية بين المسلمين من اكبر الاسباب الموجدة للتسامح والتقرب من الشعوب الاخرى ، اذ لا تعصب مع علم، ولا نفرة مع نور ورشاد . فمن منفعة العناصر كلها ان يعرف**

المسلمون دينهم على حقيقته ، وان تـزول اوبـاء الجهالات والخرافات من بينهم » (٦٢) .

« فالحقيقة الدينية » هي السبيل لابادة جيش الخرافة والتعصب الذي نسب زورا الى الاسلام ... ولعـل عصر مصطفى كامل لم يكن يعرف لجيش الباطل هذا موطنا اوسع من موطن الخلافة العثمانية بفكريتها « الاسلامية » الغارقة في الخرافة والتخلف والخزعبلات ؟!

واذا كان مصطفى كامل قد رأى في « الحقيقة الدينية » الخلاص من الخرافة والجمود والتعصب فلقد رأى كذلـك الاستعانة بما في الفكر الاسلامي من طاقات وافكار وقيـم لا تزال صالحة للعطاء في مضمار التقدم والحضارة والعمران ، ولم يكن يرى أي تعارض بين استلهام هذه الافكار والقيم الاسلامية وبين الانفتاح على المدنية والحضارة الغربية ، بل لقد كان صوتا من الاصوات التي ارتفعت بطلب التجديد دون رفض للجيد والصالح من تراثنا الاسلامي ، وللاصالة دون رفض للعطـاء الحديث الـذى تقدمـه الحضارة الاوروبية الحديثة .. ولقد ضرب لنا مثلا بالانجازات التي انجزتها مصر في عصر محمد علي ، معتبرا اياها النموذج الذي احسن الاستفادة من صالح القديم وجيد الحديث .. فعنده أن محمد علي قد « وفق في عمله بين مبادىء المدنية العصرية ومبادىء الدين الاسلامي ، لانه رأى ان في الاسلام كافة المواد الحيوية لارقى مدنية يشتهيها بنو الانسان ، وانه الدين الذي يؤهل اهله وذويه الى اسعد حالات الحياة واتم نعيمها ، فاذا اقتدينا به — (محمد علي) — **واعتمدنا على الاسلام وقواعده واوامره وارشاداته ، واخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها ،**

---

(٦٢) المرجع السابق . ص ٥٠٩ ، ٥١٠ . (من خطبته بالاسكندرية فـي ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ م) .

واعتبرنا بعبر التاريخ ، وتركنا النـزاع الـذي اضر بمصر والاسلام ، واجتنبنا كل افتراق وشقاق ، بلغنا اقصى مـا يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع ..» (٦٣) .

كان هذا هو موقف مصطفى كامل من العلاقة بـين الوطنية والدين ، فهو لا يسقط الدين من حسبانه كمـا فعل بعض الذين قلدوا ما ارادت لنا اوروبا ان نقلده فـي تلك القضية ، ولم يسقط الوطنية من حسابه كما اراد دعاة الجامعة الاسلامية ، بمفهومها العثماني . وهو لم يسقط التراث الاسلامي الصالح للعطاء ، في حركة التقدم والعمران، كما صنع « متفرنجوا » عصره ، ولم يدع الى العزلة والعزوف عن المدنية الاوروبية ، كما دعـا الـى ذلـك « الجامدون » و « المحافظون » .. وانما اتخذ موقفا وسطا ، موقف مـن يستلهم كل العناصر الصالحة للعطاء فـي معركـة التحرر والتقدم ، من اي عصر ، ومن اية حضارة ، ومن أي مكان ... كان هذا هو موقفه ، وموقعه .. ولقد عبر عنه بدقة الخديو عباس الثاني ، في مذكراته عندما قال : « كانت مبادىء مصطفى كامل السياسية ـ بعد ان عانت بضعة تعديلات ـ قد غدت مصرية ، دقيقة في مصريتها . واذا كان قد تكلـم احيانا عن تركيا ، او وجه الى اوروبا نداءاته المجلجلة ، فما كان ذلك الا ليخفي ثورة لو ان تلاميذه لمحوا منها شيئا لكان في ذلك ما افقده سلطته ... **لم يكن يريد ان يقطع صلتـه بالماضي دون فترة انتقال ، وكان يخشى ان يعرض النتائج التي حصل عليها للخطر اذا هو بدا في صورة المجدد المبالغ في تجديده** . وايا ما كان الامر ، فان اساس تعليمه لم يكن في الحقيقة عصريا مفرطا في عصريته ، بل لعل افكاره كانت اقرب

---

(٦٣) المرجع السابق . ص ٤٨٢ (من خطبته في ذكرى تنصيب محمد علي حاكما على مصر ـ ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ م) .

الى التقليد الشرقي مما يعتقد اكثر الناس ... **كان قد جرد وطنيته من كل رداء ديني ، ولكنه ظل متدينا ومتعلقا بروح القرآن** .. ومع انه تربى في اوروبا ، فلقد كان يستخدم النظريات الاوروبية كوسيلة ، ولكنه لا يعتبرها غاية في ذاتها .. » (٦٤) .

٦ ــ الوحدة الوطنية

والامر الذي يؤكد ان « الوطنية المصرية » كانت هي الاساس والمحور في فكر مصطفى كامل ونشاطه العملي ، وانه قد استهدف من وراء السعي لاشاعة « الحقيقة الدينية » بواسطة التربية والتعليم ــ غرضا وطنيا ، وبالتحديد اشاعة حب الوطن ، وتحقيق الوحدة الوطنية حول مطلب الاستقلال والحكم الدستوري النيابي ، والامر الذي يؤكد ان تلك كانت هي غايته ، ذلك الموقف الثابت والواضح من ضرورة الوحدة لابناء الامة المصرية ، بصرف النظر عن اختلاف المذاهب وتعدد الاديان .

ونحن نخطىء اذا توهمنا ان بعض المشاكل الطائفية التي حدثت بعد موت مصطفى كامل بين المسلمين والاقباط في مصر ، والتي كان البعض من زعماء الحزب الوطني طرفا في الصراع الصحفي والفكري الذي دار بشأنها ، نخطىء اذا توهمنا ان قد كان لفكر مصطفى كامل ادنى صلة بمثل هذه الامور .. ذلك ان الاستعمار الانجليزي الذي وقف خلف احداث تلك الفتنة هو الذي زج باسم الحزب الوطني فيها ، وهو الذي اجتهد كي يثير بعض الدوائر القبطية ضد الحزب الوطني زاعما ان شعار الجامعة الاسلامية لدى مصطفى كامل

---

(٦٤) المرجع السابق . ص ٣٥٥ .

وحزبه انما يعني نفس المضمون لذلك الشعار لدى السلطان العثماني ، وهو الامر الذي يلقي بذور الشك والريبة مـا بين الاقباط والحزب الوطني .. (٦٥) .

اما مصطفى كامل فان موقفه من اهمية وضرورة الوحدة الوطنية لكل ابناء الامة المصرية هو موقف ثابت وواضح وحاسم لا لبس فيه ولا غموض . فهو يقول : « كيف يستطيع رجل وطني ان يدعو للشقـاق والبغضاء ، وهـذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة . **فالاقباط اخوة لنا في الوطن ، تجمعنا بهم اشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على اتم وفاق واكمل اتفاق** » (٦٦) .

وهو يخاطب الامة محـذرا اياهـا مـن الانقسامـات والعداوات الدينية فيقول : « **اياك والانقسامات فانها منشأ الخراب والدمار ، اياك وهوس العداوات الدينية ، فانها آفة الآفات** » (٦٧) .

ويعود الى الحديث عن طبيعة العلاقة القائمة بين مسلمي مصر واقباطها ، ووحدتهم التاريخيـة ، الازليـة الابدية ، فيقــول : « **ان المسلمين والاقباط شعب واحد ، مرتبط بالوطنية والعادات والاخلاق واسباب المعاش ، ولا يمكـن التفريق بينهما مدى الابد** » (٦٨) .

ولم يكن هذا الموقف الداعي للوحدة الوطنية والحريص عليها والعامل في سبيلها نابعا من مناسبات عارضة ، ولا

---

(٦٥) كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الاسلامية) ص ٧١٩ ، ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي . طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ م .

(٦٦) الرافعي (مصطفى كامل) ص ١٤٩ .

(٦٧) المرجع السابق . ص ٤٨٧ (من خطبته بالاسكندرية في ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ م) .

(٦٨) المرجع السابق . ص ١٠٣ (من خطبته بالاسكندرية في ٨ يونيه سنة ١٨٩٧ م) .

كلمات تقال ردا على اتهامات توجه الى مصطفى كامل — ولقد وجهت بالفعل تلك الاتهامات — وانما كان تعبيرا اصيلا عن ادراك عميق لاهمية الوحدة الوطنية وضرورتها ، بل وانتفاء أي مبرر للتمزق الوطني والفرقة والصراع ، في مواجهة الاحتلال وفي مرحلة النضال من اجل الاستقلال . فمصطفى كامل يهاجم اولئك الذين يقسمون وحدة الامة غير مدركين ما تفرضه طبيعة المرحلة وضرورات الموقف من وحدة فيقول :

« يروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الانجليز ان يلقبونا « بالمتطرفين » ، ويقسمون الامة فرقا واقساما ، وما دروا **انه لا يصح ان يوجد في البلاد الفاقدة استقلالها ، المتحكم فيها الاجنبي الا حزب واحد ، هو حزب الوطن ، حزب الحرية ، حزب الاستقلال . وقد جهلوا ، او تجاهلوا انه ليس للبلاد التي يحتلها الاجنبي الا سياسة واحدة : وهي سياسة المطالبة بالاستقلال ، وان كل قول او عمل يؤدي الى اضعاف الروح الوطنية وهدم جزء او كل من ثقة الامة بنفسها وبمستقبلها هو اكبر اذى يلحق بالبلاد . . »** (٦٩) .

ونحن نود ان ننبه الى ان نوع العلاقة التي رآها مصطفى كامل قائمة ومتحققة بين المسلمين والاقباط بمصر ، هي **علاقة « المواطنة » و « الاخوة الوطنية »** ، القائمة على « الوطنية والعادات والاخلاق واسباب المعاش » ، ومن ثم فلقد كان بهذا التقييم لهذه العلاقة ابنا بارا لعصر التنوير المصري الذي بداه رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ — ١٨٧٣م)، وامتدادا لذلك الانجاز الذي حققته مصر في ظل تجربة محمد علي عندما اقامت الدولة المدنية للمرة الاولى في تاريخ الشرق الحديث . . كما كان بهذا الفكر وذلك الموقف «مفكرا

(٦٩) المرجع السابق . ص ٤٨٧ (من خطبته بالاسكندرية في ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ م) .

ومناضلا **قوميا**» قد ابتعد عن المفهوم العثماني للجامعة الاسلامية ، وهو المفهوم الذي كان يرتب عناصر الامة درجات وطبقات وفق ما تعتنق هذه العناصر من اديان ..

كما نود ان نشير الى أن التيار الوطني الذي تبلور من حول مصطفى كامل قد ضم يومئذ القيادات الوطنية في مصر ، بصرف النظر عن اديانها ، بل ان ابرز القادة الوطنيين الاقباط الذين شاركوا في تكوين الوفد المصري عقب الحرب العالمية الاولى كانوا من الذين انخرطوا في حركة مصطفى كامل .. ومن هؤلاء القادة مرقص حنا باشا ، الذي يتحدث عن دور مصطفى كامل في وحدة مصر الوطنية فيقول : **ان مصطفى كامل : « قد كون الوحدة الوطنية ، وارانا طريق الاخاء والحرية .. ورسم لنا طريق الوفاق والتآلف ، طريق الحرية والاستقلال ... انه لم يكن صديقا لفريق من المصريين ، بل كان صديقا لجميع الوطنيين على السواء ، ان حياته تعني ان الامة نمت وسمت وتفارست اغصانها حول جذع واحد وهو مصر ، هو الوطن العزيز .. »** (٧٠) .

بل نقول ، مع محمد فريد (١٨٦٧ ــ ١٩١٩م) أن خيوط الوحدة الوطنية التي نسجها مصطفى كامل قد احاطت ، لا بالمسلمين والاقباط فحسب ، بل وكذلك باليهود الوطنيين المصريين ، ويؤرخ لهذه الحقيقة الهامة محمد فريد عندما يخاطب مصطفى كامل ــ بعد وفاته ، في حفل التأبين ــ فيقول : « لقد تحقق ما كنت تؤمله ، وما قضيت زهرة شبابك للوصول اليه ، واصبحت الامة بعناصرها الثلاثة : مسلمين ومسيحيين واسرائيليين كلها مجتمعة كرجل

---

(٧٠) المرجع السابق . ص ٤٤٨ ، ٤٤٣ (من كلمته في حفل تأبين مصطفى كامل في ٢٠ مارس سنة ١٩٠٨ م) .

واحد ، متحدة الافكار والقلوب . . » (٧١) .

نعم . . لقد كانت معركة من المعارك المقدسة ، احرز فيها مصطفى كامل وتياره الوطني انتصارا يشهد لمفهوم الجامعة الاسلامية عنده بالتميز والتقدم عن كثير من التيارات التي رفعت هذا الشعار في ذلك التاريخ .

٧ ــ وضد التعصب القومي

وكما تنفي هذه الحقائق عن مصطفى كامل والحركة الوطنية التي كونها وقادها تهمة التعصب الديني في جبهة مصر الداخلية ، فانه لم يؤمن في يوم من الايام بأن شعار الجامعة الاسلامية يعني تعصب الامم المسلمة ضد الامم التي لا تدين بالاسلام ، بل لقد برىء فكره حتى من التعصب القومي ضد الشعب الانجليزي الذي تحتل حكومته البلاد ، وكان دائما يدرك وينبه غيره الى الفرق بين الدوائر الاستعمارية الانجليزية وبين الامة الانجليزية التي يجب ان تكسبها الحركة الوطنية المصرية الى صف السعى لجلاء جيش الاحتلال عن البلاد . .

فعنده ان نطاق الخلاف واطاره هو مشكلة الاحتلال فقط « فنحن مسلوبون ، والانجليز هم السالبون ، ونحن طلاب حق مقدس ، والانجليز هم مغتصبو هذا الحق ، فلا سبيل الى الاتفاق بيننا وبينهم الا باعترافهم بحقنا ورده الينا . . » (٧٢) .

اما مراده « بالانجليز » الذين يدور الصراع بينهم وبين الحركة الوطنية فيتضح من عباراته التي يقول فيها : « ضد

(٧١) المرجع السابق . ص ٢٨٥ .

(٧٢) المرجع السابق . ص ٤٩٢ (من خطبته بالاسكندرية في ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ م) .

من نجاهد نحن ؟ اضد الامة الانجليزية ؟ كلا ! ليس جهادنا ضدها ، انما هو ضد فريق من الناس يعملون لتأييد الاحتلال الانجليزي في مصر الى الابد ... اما فيما يختص بالامة الانجليزية فلا نستطيع الا احترامها ، ومهما وقع فاننا نحترمها دائما ، كما نحترم كل الامم الاخرى ، اذ انه لا يصح بغض اية امة ، ولا يقضى على شعب من الشعوب بخطأ بعض افراد من ابنائه .. (٧٣) . ان الخلاف حقيقة بيننا معشر المصريين وبين بعض الانكليز ... اننا لا نبغض الانجليزي ، بل نبغض المحتل من حيث هو محتل ، ولو كان اقرب الناس الينا ... ونقطة الخلاف الوحيدة بيننا وبين بعض الانكليز هي ان زمن الجلاء ، على رأينا ، حان ، وعلى رأيهم لم يحن الى الآن .. » (٧٤) .

صحيح ان مصطفى كامل يتحدث عن ان الخلاف هو مع افراد من الشعب الانجليزي ، ولم يبد انه قد ادرك علاقة الاستعمار والامبريالية بالمرحلة التي وصلت اليها الاحتكارات الانجليزية ، وعلاقة ذلك بالطابع الاستغلالي والنهب الاستعماري للبورجوازية هناك ـ وليس هذا موضوعنا ـ ولكن الذي يعنينا هنا هو ان الرجل لم يتخط ، فقط نطاق المفهوم العثماني لشعار الجامعة الاسلامية الى نطاق الفكر القومي ، بل لقد تقدم على هذا الدرب الى الحد الذي تبرأ فيه من التعصب القومي حتى وهو يتحدث عن الشعب الانجليزي والامة الانجليزية .

---

(٧٣) المرجع السابق . ص ٤٦٠ (من خطبته بالاسكندرية في ١٧ ابريل سنة ١٨٩٦ م)

(٧٤) المرجع السابق . ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ (من خطبته بالاسكندرية في ٣ مارس سنة ١٨٩٦ م) .

٨ ـ الموقف من الحضارة الغربية

ويرتبط بهذه القضيـــة ، قضيـــة الاستنارة القومية :
ورفض التعصب القومي ، النظرة الموضوعية التي تحلى بها مصطفى كامل وهو يقيم حضارة الغرب ومدنيته ، فلقد كان نصيرا للاستفادة من هــذه المدنيـــة والاقتباس مــن هذه الحضارة ، وهو الامر الذي يميزه ، ولا شك ، عن تيارات اخرى رفعت شعــار الجامعة الاسلامية ، ثــم توهمت ان السلامة في اغلاق النوافذ وسد الابواب وادارة الظهر لكــل المنجزات والقيم والنظريات التــي ابدعها المخالفون فــي الدين .

ففي الجوانب الوطنية لا يستلهم فقط تجاربنا وتراثنا الوطني عبر التاريخ ، ولا يقتصر الزاد الذي يقدمه لبعث هذه الامة على التذكير بماضيها المشرق وصفحاتها الزاهية ، وانما هو يستلهم كذلك تراث الامم الاوروبية في هذا الميدان ..

فعندما يعتزم اصدار صحيفة (اللواء) يكتب الى مدام جولييت آدم يقول : « اشكرك كثيرا اذا تفضلت بارشادي الى المؤلفات الخاصة **بالتاريخ القومي والقصص الوطنية عــن كل البلاد** ، لكي القن الشعب اياها ، فانه يجب ان انشر المثل العليا في الوطنية » (٧٥) ... ثم يكتب اليها ثانية حول ذات الموضوع فيقول : « رجوت منك ان تكتبي لنا بين آن وآخر مواعظ وطنية مما جرى في عصرك او في بطون التاريخ» (٧٦) .

ثم يكتب عن تجربة النضال الوطني للشعب المجــري

---

(٧٥) المرجع السابق . ص ٤٢٧ . (من خطاب مؤرخ في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٩ م) .

(٧٦) المرجع السابق . ص ٤٢٧ (من خطاب مؤرخ في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ م) .

فيقول : « **ان تاريخ هذا الوطن المجري هو اكبر مدرسة لرجل مثلي وهب حياته لخدمة وطنه واعلاء شأنه** .. » (٧٧) .

اما عن تقييمه للحضارة الاوروبية والمدنية الغربية ، فانه التقييم الذي يجعل منه احد الابناء البررة لعصر التنوير المصري الذي استفاد استفادة ملحوظة من حضارة الغرب ومدنيته ، فهو يتحدث الى الامة المصرية قائلا : « نقول للامة : .. اياك وسوء ظن الملأ المتمدن بك ، فان الشعوب في المدنية متضامنة ، ويا شقاء من سار ضدها ..! » (٧٨)

ثم نراه يشرح نظرته تلك وموقفه هذا في المقال الشهير الذي كتبه عن حادثة «دنشواي» فيقول : « ان الخطة الوطنية التي يجري عليها اصحاب النفوذ والتأثير في الرأي العام المصري واضحة جلية ، فنحن نريد ، بفضل التعليم ونور التقدم ، انهاض شعبنا ، وتعريفه حقوقه وواجباته ، وارشاده الى المقام اللائق به في العالم ، **واننا ادركنا من اكثر من قرن انه لا يمكن للامم ان تعيش عيشة كرامة اذا لم تسلك طريق المدنية الغربية ، واننا اول شعب شرقي صافح اوروبا ، واننا مستمرون على السير في الطريق الذي سلكناه** .. » (٧٩) .

فنحن هنا بازاء موقف متميز لتيار شهدته ساحة النضال تحت شعار الجامعة الاسلامية ، وهو التيار الذي اراد ان يزاوج ما بين العناصر الصالحة في تراث الشرق وما هو صالح وملائم في حضارة الغرب ومدنيته .. ولقد صدق الكاتب الفرنسي « لويس برنزان » عندما وصف نموذج المدنية الذي راود خيال مصطفى كامل فقال : انه « كان يحتقر

---

(٧٧) (اللواء) مقال عنوانه (حزب وطني حر في مصر) بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٩٠٠ م) .

(٧٨) الرافعي (مصطفى كامل) ص ٤٨٧ (من خطبته بالاسكندرية في ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ م) .

(٧٩) المرجع السابق . ص ٢١٥ (والمقال منشور في صحيفة (الفيجارو) في ١١ يوليو سنة ١٩٠٦ م) .

مدنية لا غاية لها الا الرقي المادي دون عناية بتحرير النفس ادبيا ! » .

ولعل هذا الموقف من الحضارة الغربية كان اشبه بموقف الطهطاوي والافغاني ومحمد عبده منه بموقف الذين ارادوا « محاكاة » هذه الحضارة .. كما كان بموقع قصي من موقف الجامدين والمحافظين والعثمانيين ..

٩ ـ النظام الدستوري النيابي

والبعض يظن ان شعار الجامعة الاسلامية قد جعل مصطفى كامل ـ تحت تأثير العلاقات القائمة بين تياره الوطني وتركيا ، التي كانت تحكم حكما « اوتوقراطيا » ـ يهمل الدعوة الى النظام الدستوري النيابي ، وينسب هذا البعض بدء اليقظة الدستورية ـ بعد هزيمة العرابيين وحدوث الاحتلال الانجليزي ـ الى التيار الذي تبلور في (حزب الامة) وزعيمه احمد لطفي السيد .. ولكن هذا الظن من هذا البعض هو ابعد ما يكون عن الصواب .. فبعد ان اتضحت طبيعة مضمون شعار الجامعة الاسلامية لدى مصطفى كامل ، وطبيعة العلاقة التي ربطت بين تياره الوطني وبين الدولة العثمانية ، لا بد وان نبحث عن موقفه من النظام الدستوري والنيابي دون ان ندع هذا الظن يلقي ظلاله على هذا الجانب من جوانب فكر ونضال هذا الزعيم ..

واذا كان بحثنا هذا لا يرمي الى دراسة كل جوانب فكر ونضال مصطفى كامل ، ومن ثم فان الافاضة في دراسة فكره الدستوري ونضاله في سبيل الحكم النيابي هو امر خارج عن غرضنا وعن حيز دراستنا هذه ، فاننا نتناول ، بالاشارة المتأملة ، موقفه من هذه القضية بقدر ما تنهض هذه الاشارة دليلا جديدا على الاختلاف في الموقف والرأي والفلسفة بين

مصطفى كامل وبين فكرية الدولة العثمانية ونمطها في الحكم وفلسفتها في ادارة شئون الامبراطورية .. لقد كانت الدولة العثمانية دولة أوتوقراطية ، وكذلك كان المؤمنون بفلسفتها في الحكم ، بينما كان مصطفى كامل من اوائل الذين ناضلوا في مصر ، بعد الاحتلال ، في سبيل الحكم النيابي والدستور .

والدستور عنده لم يكن نصا ميتا يرضي بـه الحاكم المحكومين ، وانما كان يعني سلطة الشعب التي تعلو على كل السلطات ــ الدستور يعني عند مصطفى كامل « .. منح الامة حق الاشراف على كافة الاعمال ، ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لعزها ، وسؤال الوزارة عـن كل صغيرة وكبيرة ، وتغييرها بغيرها اذا اساءت استعمال السلطة او تهاونت في خدمة البلاد .. الدستور هو : ان لا يستطيع احد مهما كان عظيما ، وطنيا او اجنبيا ، ان يمس القوانين والنظامات بشيء .. » (٨٠) .

واذا كان هذا هو موقف مصطفى كامل وفهمه للدستور، فلعل في التذكير بأن فكرية الدولة العثمانية كانت تقوم على فلسفة الحكم بالحق الالهي ، وان الخليفة العثماني هو ظل الله على الارض ، وانه لا يجوز تغيير صاحب السلطة ولا الثورة عليه حتى لو فسق وفجر ... لعل في التذكير بطبيعة فكرية هذه الدولة ما يضع فكرنا على مدى البون الشاسع ، بل التناقض الجذري ، بين فكرية مصطفى كامل وفكريـة العثمانيين ، ومن ثم يؤكد لنا اختلاف مضمون شعار «الجامعة الاسلامية» عنده عنه لدى العثمانيين .

اما النظام النيابي ، الذي يعبر فيه المجلس النيابي عن رأي الامة ومصالحها ، والذي يمارس فيه سلطانها وسلطتها ،

---

(٨٠) المرجع السابق . ص ٤٨٠ (من خطبته في ذكرى حكم محمد علي لمصر ــ ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ م) .

فلقد دعا اليه مصطفى كامل ، بل وكان الرائد الذي سبق الدعاة اليه بعد الاحتلال الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢ م .. بل لقد اقترنت دعوته الى الحكم النيابي بدعوته الى الاستقلال ، اي منذ بدأ حياته السياسية الحقيقية في سنة ١٨٩٤ م .. وهو يكتب مؤرخا لبدئه الدعوة الى ذلك فيقول — في سنة ١٩٠٤ م — : « لعل قراء (اللواء) وغيرهم من افراد الامة المصرية يذكرون ما قلناه من فوق المنابر ، وكتبناه في هذه الجريدة وغيرها عن وجوب انشاء مجلس نيابي **منذ عشر سنوات** كاملات ، ويسرهم ، كما سرنا ، ان هذا الطلب العزيز صار على ألسنة الكثيرين من اهل القطر ، لانه الانشودة التي يجب ان يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال . وسواء كان سابقا او لاحقا لتخلص البلاد من رق الاحتلال فانه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة .. ليس للاحتلال مصلحة في ايجاد مجلس نيابي لهذه البلاد ، ولكن صوت الامة يعلو على صوته ، اذا تمسكت به ودعت اليه وطالبت وجاهدت بقوة الرأي والفكر والثبات ، التي هي اكبر القوى الفعالة في حياة الامم .. فلتفعل ، فانما هي تخطو بالوصول اليه اكبر خطوة في طريق الاستقلال .. » (٨١) .

ومصطفى كامل يربط هنا ربطا وثيقا بين التحرر من الحكم الفردي والتحرر من سلطة الاحتلال ، وينفي الوهم الذي شاع لدى فئة من الوطنيين يومئذ بأن الاحتلال لا مانع لديه من أعطاء الدستور والحكم النيابي ، ومن ثم ينفي مبرر ذلك التناقض المفتعل بين الاستقلال وبين الدستور والحكم النيابي ، ولاي منهما تكون الاولوية في النضال والجهاد ؟؟!

---

(٨١) (اللواء) مقال بعنوان (انشاء مجلس نيابي) في ٩ مارس سنة ١٩٠٤ م .

وفي مقام آخر يعالج مصطفى كامل العصبة الدينية » ، والادارية التي خلقها الاحتلال بمصر ، ويحدد التام القائم على هو الحكم النيابي ، والتخلص من سلطة الفرد ، ماها العلمي هذا الفرد اجنبيا ام مصريا ، مما ينفي عن الرجل شبهة بعث مطالبته بالحكم النيابي انما كان امرا يقصد به احراج الانجليز، وانه كان على وفاق مع دعاة السلطة الفردية ، مصريين كانوا ام عثمانيين .. يقول عن علاج المشاكل التي اوجدتها سلطة الاحتلال الاستبدادية : « ... وعندي ان هذه الادوار المختلفة والادواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة هذه البلاد الى مجلس نيابي تكون له السلطة التشريعية الكبرى ، فلا يسن قانون بغير ارادته ، ولا تحور مادة الا بمشيئته ، ولا يزعزع نظام بغير امره ، ولا تعلو كلمة على كلمته ، والا **فان بقاء السلطة المطلقة في يد رجل واحد ، سواء كان مصريا او اجنبيا، يضر بالبلاد كثيرا ، ويجر عليها الوبال ..** » (٨٢) .

ثم يزيد مصطفى كامل امر رفضه لسلطة الفرد وضوحا وحسما ، حتى لو كان هذا الفرد هو الخديو ، فيقول : « ان كل مصري صادق الوطنية لا يقبل مطلقا ان يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده ، او بيد المعتمد البريطاني ، او بيد الاثنين معا ، بل يطلب ان يكون حكم هذا الوطن العزيز بين النابغين والصادقين من ابنائه ، وان تكون نظامات الحكومة دستورية ونيابية .. » (٨٣) .

ثم يكتب الى رئيس الوزراء الانجليزي في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧ م — في ذكرى احتلال الانجليز للقاهرة سنة ١٨٨٢ م — فيقول عن هذه القضية : « اننا نطالب لمصر حكومة دستورية حرة ، واننا لا نقبل حكم الاهواء والاستبداد ابدا ،

---

(٨٢) المصدر السابق . مقال بعنوان (افلاس الاحتلال) في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢ م .

(٨٣) المصدر السابق . مقال بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧ م .

وان الارادة الوحيدة التي نريد ان نخضع لها هي ارادة الامة ، وان العقل لا يقبل مطلقا ان السلطة المطلقة المتقلبة حسب الاغراض والاهواء ، التي يتصرف بها المعتمد البريطاني ، تكون افضل وانفع من دستور اهلي – (وطني) – مؤسس على المبادىء الحرة ..! » (٨٤) .

ثم ينبه الاذهان الى ان الحكم الدستوري النيابي الحقيقي شيء وما يعد به الاستعمار ويقنع به البعض من الاصلاحات « الدستورية » العرجاء شيء آخر ، وان الثانية لا تساوي ، ومن ثم لا تغني ، عن الاولى – فعنده « ان المصريين لا يرضون باصلاحات سطحية يعطونها ذرا للرماد في العيون ، بل انهم لا يطمئنون على انفسهم وبلادهم الا اذا عادت الحكومة الاهلية – (الوطنية) – بسلطتها وسطوتها ورهبتها ، **وكانت حكومة دستورية خاضعة لمبادىء التمدن الحديث ، ومستمدة قوتها من الشعب ، وعاملة برغائبه ، ممتثلة لاوامره** ... ان المصريين لا يرضون بحكومة الرجل الفرد ، سواء كان مصريا او اجنبيا .. » (٨٥) .

فهو هنا يربط ما بين الاستقلال والحكم الدستوري النيابي والارتباط بمبادىء التمدن الحديث ... وشتان ما بين موقف صاحب هذا الفكر وموقف اولئك الذين بشروا او قبلوا بفكرية الحكم الاوتوقراطي التي نهج نهجها العثمانيون ..

الجامعة الاسلامية هي التضامن

واخيرا .. فان مصطفى كامل يحدد ان شعار الجامعة الاسلامية لا يتعدى حدود روابط « **التضامن والتعاطف** » ،

---

(٨٤) الرافعي (مصطفى كامل) ص ٢٥٥ .

(٨٥) المرجع السابق ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ (من خطبته بالاسكندرية في ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ م) .

ولا يرقى الى « الدولة الواحدة » ، او « العصبة الدينية » ، ومن ثم لا يمثل أي قيد على استقلال مصر التام القائم على تبلورها كأمة تمتلك كل قسمات الامة بمعناها العلمي والحديث .. فالرجل الذي اسهم الاسهام الاكبر في بعث روح مصر الوطنية والقومية المصرية الحديثة قد ابصر وراء دائرة مصر القومية دائرة اوسع من التضامن والتعاطف الادبي والسياسي ، وتتمثل في نوع من « الامية الاسلامية » ـ ان جاز التعبير ـ وهذه الامية لا تقوم على وحدة العقيدة بقدر ما تقوم على وحدة المشاكل او وحدة اسباب التخلف ، ووحدة المعركة التي تخوضها شعوبها ضد الاستعمار الاوروبي الزاحف على اوطانها بكل الوسائل ومن مختلف الاتجاهات ..

وفي النداء الذي وجهه مصطفى كامل الى العالم عقب حادثة « دنشواي » يقول عن علاقة « التضامن والتعاطف » هذه : « ان عطفنا على الشعوب الاسلامية لامر طبيعي ، لا تعصب فيه ، وانه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة انه من الممكن اجتماع الشعوب الاسلامية في عصبة واحدة ضد اوروبا ، والذين يقولون بذلك اما جاهلون او راغبون في ايجاد هاوية بين العالم الاوروبي والمسلمين .. انه لا سبيل لنهضة الشعوب الاسلامية بغير حياة اسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقي .. » (٨٦) .

وعندما تكتب جريدة (الطان) الفرنسية عن تخوف اوروبا من حركة الجامعة الاسلامية يكتب مصطفى كامل ، رادا عليها ، مقالا يقول فيه : « لقد فسرت كلمة الجامعة الاسلامية في اوروبا تفسيرا لا يتفق ومعناها الحقيقي ، واني

---

(٨٦) المرجع السابق . ص ٢١٥ ، ٢١٦ (من مقال « الى الامة الانجليزية والعالم المتمدن » المنشور في صحيفة (الفيجارو) في ١١ يونيو سنة ١٩٠٦ م) .

اعيد هنا ما كتبته في « الفيجارو » و « اللواء » وما قلته في كل مكان ، من انه **لا يوجد مسلم متنور يعتقد لحظة واحدة ان الشعوب الاسلامية يمكنها ان تؤلف عصبة ضد اوروبا** . واني اتساءل : من الرجل العاقل السليم الادراك الـذي يصدق امكان تغلب الشعوب الاسلامية على كافة الدول الاوروبية ؟! ان الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء هـي **ان حركة الجامعة الاسلامية ، بالمعنى المقصود منها في اوروبا ، أي الحرب الدينية ، لا وجود لها بالمرة ، لان المسلمين ادركوا من زمان بعيد انه يستحيل على اية امة ان تعيش في معزل عـن العالم ، وان الامة التي تحاول ذلك تقضي على نفسها بالموت ، اما الشعور الموجود ، وبلا نزاع ، عند كافة الشعوب الاسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض ، فكل مسلـم يرغب من صميم فؤاده ان يرى ابناء دينه معاملين احسن من المعاملة الحالية ، ومعتبرين كجـزء حـي مـن الانسانية ، ومحترمين في كل مكان ، ومن كل انسان ، وانه لما كان لتأخر الشعوب الاسلامية اسباب واحدة ، وان هذه النهضة لا تصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل اوهام تأليف عصبة اسلامية ضد المسيحية ، بل بالتعليم والنور ، وبما ان الاسلام ليس عقيدة فقط ، بل قانون اجتماعي ، فان احياء الافكار ونشر المعارف لا يتمان الا باظهاره على حقيقته ، وان ميل كل مسلم لابناء دينه امر طبيعي وشرعي ، ولا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل . . » (٨٧) .**

* * *

تلك هي افكار مصطفى كامل عن الجامعة الاسلامية . . رفع شعارها وناضل تحت رايتها ، ولكن من منطلق قومي مصري مستنير ، فكان نموذجا متقدما من بين النماذج المتعددة

(٨٧) المرجع السابق . ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

التي شهدتها ساحة حركة الجامعة الاسلامية في ذلك التاريخ .. نعم .. كان اكثر تقدما من اولئك الذين رأوها رباطا يصنع دولة واحدة للعالم الاسلامي ، عثمانية كانت تلك الدولة او غير عثمانية ، لانه لم ينكر الدائرة القومية كما انكروها .. وكان اكثر تقدما من اولئك الذين رأوا فيها مجرد حركة روحية، لانه ابصر قيمتها السياسية في التصدي للاستعمار .. وكان اكثر تقدما من اولئك الذين رأوها سياجا تقبع من خلفه الشعوب الاسلامية كي يصد عنها الرياح الحضارية الآتية من خلف البحار ، لانه كان سياسيا مستنيرا ، حاول ان يزاوج ، قدر طاقته ، بين تراثه الاسلامي وتقاليده الشرقية وبين عطاء الحضارة الغربية ومدنية الاوروبيين ..

واذا كان الفكر الاجتماعي لمصطفى كامل قد اتصف بشيء من المحافظة في بعض القضايا ، كقضية تحرير المرأة وامثالها ، فليس ذلك من آثار ايمانه بحركة الجامعة الاسلامية ، لانها كانت عنده شعارا سياسيا ، ولان المحافظة في مثل هذه القضايا الاجتماعية ليست وقفا على الذين اعتنقوا هذا الشعار .. فلقد كان الافغاني ومحمد عبده قطبي تيار واحد من تيارات الجامعة الاسلامية ، ومع ذلك تميز فكر الافغاني ازاء تحرير المرأة بالمحافظة والتحفظات ، بينما استشرف فكر الامام محمد عبده في ميدان حريتها وتحريرها آفاقا جعلته ينشر بعض افكاره الخاصة بها باسم قاسم امين (٨٨) ، لانها قد تجاوزت الحدود التي يسمح بها عصره ان يتزيا بزيه ويتولى مثل مسئولياته الدينية ؟!

* * *

واذا كان لاحد ان ينتقد غياب الموقف النقدي عن هذه

(٨٨) انظر الدراسة التي قدمنا بها للاعمال الكاملة للامام محمد عبده . ج ١ ص ٢٤٥ وما بعدها .

الصفحات التي قدمناها عن مصطفى كامل والجامعة الاسلامية ، فاننا نود ان نقول : انه ليس في فكر مصطفى كامل ازاء هذه القضية شيء يعتذر عنه محبوه او ينتقده عليه دارسوه، فلقد كان اكثر الاصوات التي ارتفعت بشعار الجامعة الاسلامية تقدما ، واذا كان عبد الرحمن الكواكبي قد ارسى اسس القومية العربية والامة العربية ورأى في الجامعة الاسلامية دائرة التضامن الادبي والفكري والسياسي التي تليها ، فان مصطفى كامل قد اتخذ من « الوطنية المصرية » قاعدة انطلاقه ، ثم راى في الجامعة الاسلامية دائرة التضامن الادبي والفكري والسياسي التي تلي دائرة الامة المصرية . . . وهو فكر لا نقول انه قد كان صالحا لعصره فقط ، بل وصالح كذلك للعصر الذي نعيش فيه ، لانه يلمس بعمق تلك الحقيقة التاريخية التي تحتم الربط بين مصر وبين المحيط الذي يكتنفها . . فهذا الربط هو ضرورة حياة لمصر ، كما هو ضرورة حياة لبلدان ذلك المحيط .

* * *

وختاما . . نقول : انه اذا كان هذا البحث قد التزم بالموضوعية ، وتجلى ذلك الالتزام في النصوص العديدة التي استشهدنا بها لمصطفى كامل ، حتى لقد جعلنا منه بعثا وبلورة لهيكل فكره في هذا الموضوع . . فانه قد كتب كذلك من موقع الحب والاعزاز والفخر بصاحب ذلك الصوت الحبيب المدوي الذي ايقظ مصر من نومها ، وانقذها من عثرتها ، وبث فيها روح النضال بعد سنوات من ظلام اليأس الذي اطبق عليها بعد الاحتلال . .

واذا كان مصطفى كامل قد احب مصر كما لم يحبها احد من معاصريه ، فان حبه والاعتزاز به هو جزء لا يتجزأ من حبنا لهذا الوطن المقدس الذي نعيش فيه .

وانه لما يزيد المرء سعادة ان يتخطى بحث يقدمه نطاق « الدراسة المجردة » لموضوع من الموضوعات ، ليصبح جزءا من العمل الوطني العام .. فهذا هو معنى الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد مصطفى كامل .. ففي ذكراه وذكرنا له ودراستنا لفكره ونشاطه ونضاله احياء واعلاء لذلك السلاح الذي لا زلنا نشحذه في معاركنا الراهنة والمستقبلة ، سلاح « الوطنية المصرية » الذي كان مصطفى كامل اعظم ترسانة صنعت لمصر سلاحها هذا في عصرها الحديث .. وكما قال ـ عليه رحمة الله ـ : فانه « لا شيء يرفع مقام الوطنية في بلاد مثل احياء ذكرى الرجال الذين اخلصوا في خدمتها ، وقضوا اعمارهم في العمل لاعلاء شأنها وتحقيق آمالها ولا شيء يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان في امة ، وجهلها لتاريخها ، وعدم تقديرها للرجال المخلصين في خدمتها .. » (٨٩) .

ففي هذا الاحتفال اعلاء لمقام « الوطنية المصرية » ، واسهام في معارك اليوم والغد ، من خلال استلهام انصع صفحات الماضي التي كان مصطفى كامل من اكثر نماذجها اشراقا في عصرنا الحديث .

---

(٨٩) (اللواء) في ١٠ مارس سنة ١٩٠١ م (من مقال كتبه في ذكرى علي باشا مبارك) .

هكذا تكلم مصطفى كامل

يحسب كثير من الناس ان مصطفى كامل كان شاعر الوطنية المصرية .. وفقط .. ولذلك فهم لا يعرفون انه الى جانب حبه الصوفي لمصر ، وغزله في حضارتها ، وصلاته لحريتها واستقلالها وتسبيحه بعزتها وكرامتها ، كان مفكرا سياسيا تميز بالعبقرية والنبوغ ، وان هذه العبقرية والنبوغ قد تدعمـا واستـوى عودهما بالدرس للسيـاسـة العـالمية وقوانينها والمصالح التي تحركها ؛ وبالدرس كذلك لتاريخ وطنه وحضارته وواقعه الوطني الذي عاش فيه . .

ومن هنا فان تقديم عدد من الصفحات التي تمثل مجرد نماذج من انتاج مصطفى كامل هو امر ضروري لتصحيح تلك الصورة المبتورة التي يحسبها الكثير من الناس صورته .

ولما كان الحيز الذي قررناه لهذه الدراسة لا يحتمل التوسع في حجمها ، فاننا نختار هنا نموذجا واحدا من كل فن من الفنون التي تجلت فيها عبقريته .. لقد كتب الرسائل .. وحرر المقالات .. وانشأ اروع الخطب واحلاها في تاريخ مصر الوطني الحديث .. ولذلك فاننا نقدم هنا :

١ ــ رسالة كتبها من باريس الى رفيق نضاله وخليفته في قيادة الحزب الوطني محمد فريد بتـاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦ م . وفيها يقترح العمل لانشاء الجامعة الوطنية المصرية .. وكان سباقا في هذا المضمار ..

٢ ــ المقال الذي كتبه عـن حـادثة « دنشواي » في صحيفة (الفيجارو) الفرنسية بتاريخ ١١ يوليو سنة ١٩٠٦ م تحت عنوان : (الى الامة الانجليزية والعالم المتمدن) .. فهو قطعة راقية من الادب السياسي المصري الوطني الحديث ..

٣ ـ الخطبة التي ألقاها في الذكرى المئوية لاختيار الشعب المصري محمد علي باشا واليا على مصر ، وذلك في ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ م .. ففيها نموذج لفكره عندما يقيم تاريخ مصر وحضارتها ، وعندما يتحدث عن شعبها ، وينظر الى مستقبلها المأمول والمنشود ..

[رسالة الى محمد فريد]

« عزيزي فريد بك

« تحية وسلاما واحتراما واعظاما ، وبعد .

فقد طالعت اليوم في (اللواء) بعد عودتي من «هنداي» انه تأسست لجنة في مصر بقصد عمل اكتتاب عام لدعوتي الى وليمة ، واهدائي هدية ، اعلانا لارتياح المصريين من قيامي بخدمة بلادي العزيزة ، وانك تفضلت فقبلت أن تكون امينا لصندوق هذه اللجنة .

« فاسمح لي أن ارجو منك ان تتنازل بتبليغ اعضاء هذه اللجنة ، ومن تكرموا بتلبية دعوتها ، اني اشكرهم من صميم فؤادي على جميل انعطافهم نحو اضعف خَدمة الوطن ، وجزيل رعايتهم نحو رجل لا يرى فيما عمل الا جزءا من واجب عظيم جسيم يطالب كل مصري بتأديته .

« واني ما شعرت لحظة واحدة في حياتي بأني مستحق لشيء من الالتفات او الشكر على دفاعي عن حقوق مصر ، ومطالبتي باستقلالها ، ومناداتي بوطنية ابنائها ، لاني انما اقوم بفرض مقدس ، وما خطوت الى اليوم الخطوة الاولى في سبيل اسعاد مصرنا العزيزة ، التي امتلأت رحابها بعظام الآباء والاجداد .

« واي فضل لمثلي ، واصغر جندي في الجيوش يلقي علينا جميعا اكبر درس ، واسمى عظة ، لانه الحامل لراية

الوطن ، المدافع عن شرفه ومجده واستقلاله ، المفدي لحياته صيانة لحياة الملايين من الشيوخ والنساء والاطفال .

« فاذا كان هذا شأن كل فرد من افراد الجيش ، ووظيفة كل جندي من جنودها ، فكم تكون واجباتنا نحو الوطن عديدة وعظيمة ، نحن الذين استفدنا من نعم الوطن اكثر من غيرنا ، وامتزنا بالعلم والعرفان ، وقدرنا حقوق الديار ، ورأينا نور الحقيقة ساطعا امامنا ، وشاهدنا عظمة الشعب الراقية ، وقارنا بين حالهم وحالنا ، وتقدمهم وتأخرنا ؟.

« شكرا لكم ، والف مرة شكرا ، ولكني لا استطيع ان اقبل ثناء لا استحقه ، واكراما لم افعل شيئا لنيله ، ولا يمكنني ان أرضي بأن يكون الشعور الوطني مما يكافأ الرجل عليه ، وهو لا يكون رجلا الا به !.

« نعم اني اعلم انكم تحيون في شخصي الضعيف الفكرة الوطنية الشريفة ، وتريدون ان تعلوا شأنها ، وترفعوا لواءها ، كما ان اعدائي والطاعنين علي انما يحاربون في الحقيقة هذه الفكرة وذلك الشعور ، لاني لست شيئا ، على حين ان الوطنية هي في حياة الامة كل شيء .

« ولكن ما تبتغون كائن لا ريب فيه ، فقد ارتفع لواء الوطنية المصرية رغما عن كل معاند ومعارض ، وعلم العالم كله ان المصريين احياء يشعرون ويرغبون المجد من السبل الصالحة المؤدية اليه ، واقتنعت الامم اننا نطلب الحياة والدستور والحرية بالعقل والروية ونسعى الى اسعاد وطننا بالعلم والجهاد القانوني ، وهي نتيجة ما كان ليصدق اعداء مصر والمصريين انها تكون بعد ان ظن الجاهلون بأسرار حياة الامم وارتقائها ان مسألة استقلال مصر قد قبرت واستراح ساسة الانجليز منها .

« فخير هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والامة

المصرية المحبوبة هي ان تقوم اللجنة التي شكلت بدعوة الامة كلها ، وطرق باب كل مصري لتأسيس كلية اهلية تجمع ابناء الفقراء والاغنياء على السواء ، وتهب الامة الرجال الاشداء الذين يكثرون في عداد خدامها المخلصين ممن لا يخافون في الحق لوما ولا عتابا ، ويعملون لمداواة ادوائها وجمع امرها وبث روح الوطنية العالية في كافة ابنائها ، لان كل مليم يزيد على حاجة المصري ولا ينفق في سبيل التعليم هو ضائع سدى ، والامة محرومة منه بغير حق .

« هذه هي الهدية الوحيدة التي يليق بالوطنيين الصادقين اهداؤها لمصر والمصريين ، هذه هي الهدية الفريدة التي تملأ الفؤاد فرحا وانشراحا وفيها ارقى مظاهر الحياة والشعور .

« فلتنس الاحزاب انقساماتها ، ولينس الصحافيون خصوماتهم ، ولتلق الاحقاد ـ (ولو يوما واحدا) ـ في هوة لا يسمع منها لغو ولا دوي ، ولتجتمع الامة لاتمام هذا العمل الفخم ، وتحقيق ذلك المشروع الذي كله خير ونفع عميم .

« وليذكر الذاكرون ان بين ابناء الفقراء ، الذين سد الاحتلال في وجوههم ابواب العلم والنور ، رؤوسا لو تحلت بالعرفان لكانت فخار مصر الى ابد الزمان ، ليذكر ذوو الاحساس والوجدان ان في مصر كنوزا لم تستخرج للآن ، وانها لو اخرجت للناس لملأت الارض نورا ، وان هذه الكنوز مدفونة بين مساكن الفقراء ، ان الكلية هي البناء الذي ادعو المصريين جميعا الى تشييده ، وما اكبر سعدي ، واعظم هنائي ، لو ساعدتني الايام على وضع حجر فيه مع العملة الابرار الذين يعملون لخير البلاد ليس الا ، ولا يسألون احدا (جزاء ولا شكورا) .

هذا وارجوك ايها الصديق ان تتفضل بقبول اصدق سلام واوفى احترام من محبك واخيك » .

مصطفى كامل

باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦

مقـــــال

(الى الامة الانجليزية والعالم المتمدن) (٩٠)

« لقد حدثت حادثة مؤلمة في قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى « دنشواي » تحركت بسببها عواطف الإنسانية في العالم كله ، وقام رجال احرار الفكر مستقلو الاخلاق والاطوار في انجلترا رافعين اصواتهم سائلين عما اذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها ان تسمح بأن يرتكب باسمها امر ظالم قاس ؟

« وانه لمن الواجب على الذين يشفقون حقيقة بالانسانية والعدل ، ان يدرسوا هذه المسألة ويصدروا فيهـا حكمهم العادل ، وهي المسألة الشاغلة لامة بأسرها !

« فقد ترك ضباط من الانجليز في يوم ١٣ يونيه الماضي معسكرهم بالقرب من دنشواي بمديرية المنوفية ، وقصدوا صيد الحمام في الاملاك الخصوصية للاهالي ، فأنذر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الاهالي قد استاؤوا فـي العام الماضي من صيد الضباط الانجليز لحمامهم ، وانهم ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا الى الصيد في هذا اليوم !

« ورغما من هذا الانذار فان الضباط اخذوا يصطادون، واطلقت العيارات النارية ، وجرحت امراة ، وحرق جـرن ، فاجتمع الفلاحون من كل مكان ، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الانجليز ، جرح هؤلاء فيها ثلاثة من المصريين وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الانجليز ، وقد تخلص احد المجروحين وهو الكبتن « بول » من المعركة ، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة

---

(٩٠) نشرت (الفيجارو) الفرنسية هذا المقال في ١١ يوليو سنة ١٩٠٦م.. ثم ترجم الى الانجليزية ونشرته صحافة انجلترا .. ولقد تحول الـى بيان الحركة الوطنية المصرية عن « دنشواي » ، فتبنته مختلف الدوائر الوطنية كوثيقة ضد بربرية الاحتلال الانجليزي لمصر وفظائعه فيها .

كيلومترات ، حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجـة وسقط بعد ذلك ميتا بضربة الشمس وما علم العساكر الانجليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواي ، وقتلوا فلاحا بدق رأسه !

« هذه هي الوقائع ، وما علمها اصحـاب الامر مـن الانجليز حتى فقدوا الرشد ، وثاروا مـن قيـام المصريين بالمدافعة عن انفسهم وعن املاكهم ! وبدلا من ان ينظروا الـى الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك ، بالغوا فيها وجسموها ، واعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التي ستضرب للناس ستكون هائلة! فلم يكن العدل هو المنشود في المسألة ، بل الانتقام الفظيع !

« ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر متشل المستشار الانجليزي ، قبل المحاكمة باسبوع بلاغا رسميا اثقلت فيه كواهل المتهمين بالتهم ، وقصدت صراحة التأثير في المحكمة والرأي العام ! وبلغ من احتقار احدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة انها نشرت خبر ارسال المشانق الى دنشواي قبل المحاكمة ، وقد راع الشعب كل ذلك ، فأخذ يتساءل عن الحكم الذي ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة .

« وقد اجتمعت المحكمة في يوم ٢٤ يونيه ، وأي محكمة؟ محكمة استثنائية لا دستور يقيدها ولا قانون يربطها ! لقضاتها ان يحكموا بكل العقوبات التي تخطر على البال ! محكمـة اغلبيتها للانجليز ولا تستأنف احكامها ، ولا تقبل العفو ! وان المرسوم الذي صدر بتشكيلها في عام ١٨٩٥ — بنـاء على ضغط اللورد كرومر — ذلك الضغط الذي لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقا باظهار أي مقاومة — يحمل قارئه على الظـن بأن الجيش الانجليزي الذي القت اليـه انجلترا امر تأييد

الامن في مصر ، في خطر مستمر ، جعله في حاجة الى محكمة كهذه المحكمة او لآلة ارهاب .

« قضت هذه المحكمة ثلاثة ايام في نظر القضية ، وتبين ان الضباط الانجليز هم الذين هاجموا الفلاحين بصيدهم في ممتلكاتهم ، وبجرحهم احدى نسائهم ، وان الفلاحين هجموا على الانجليز بوصف انهم صيادون يختلسون الصيد ؛ لا ضباط بريطانيون ! واعترف امام المحكمة اطباء انجليز ؛ بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعي للمحاكم ، بأن الكبتن « بول » مات بضربة الشمس ، وان جراحه لم تكن كافية وحدها لاحداث الوفاة !

« ولم تترك المحكمة الا ثلاثين دقيقة لاكثر من خمسين متهما ليقولوا ما عندهم ، وابت سماع اقوال احد رجال البوليس ، حيث اكد ان الضباط الانجليز اطلقوا العيارات النارية على الاهالي، وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب في المعركة ، والذين يعتبرهم العدل في كل بلد خصوما للمتهمين !

« وفي يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق اربعة من المصريين ، وبالاشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبالاشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما على واحد ، وبها لمدة سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة ، وبالجلد على خمسة ، وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرباج له خمسة ذيول !!

« وقررت المحكمة في حكمها تنفيذ الحكم في اليوم التالي ! بحيث لم يمض الا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم .

« ففي الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الاربعاء ٢٧ يونيه جيء بالاربعة المحكوم عليهم بالشنق ، والثمانية

المحكوم عليهم بالجلد ـ (عفت المحكمة عن واحد من المحكوم عليهم بالجلد لان الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله) ـ من « شبين » ، مقر مديرية المنوفية ، الى قرية (الشهداء) التي تبعد اربعة كيلو مترات عن « دنشواي » ، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع ! وفي الساعة الاولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٧ يونيه جيء بهم الى « دنشواي » ، وكان اصحاب الامر من الانجليز قد أصروا على تنفيذ الحكم في محل الواقعة ، وفي الساعة التي وقعت فيها !

« نصبت المشانق ، ووضعت آلات الجلد والتعذيب في وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر ، واحاطت عساكر « الدراجون » الانجليزية بالمحكوم عليهم ، والتفت الخيالة المصرية حول الانجليز ، وتولى المستر متشل مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية امر التنفيذ ! وقد تقدم اليهما ابن اول المحكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده ليتلقى وصاياه الاخيرة ، فرفضا قبول هذا الرجاء الذي هو اعز ما يرجوه الانسان ويحتمه الشرع والعدل !

« وفي منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيولها وشهرت سيوفها وبدىء بعد ذلك بدقيقة في الشنق !

« فشنق رجل ، ولبث افراد عائلته واقاربه وكل اهالي القرية ، وهم عن بعد ، يملأون الفضاء بصراخهم المزق للقلوب ، وجلد اثنان امام الجثة !

« وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات ، واستمر ساعة من الزمن! منظر وحشي مهيج للعواطف، بكى منه بعض الحاضرين الاوروبيين بدموع الحنان ، وابدوا النفور الشديد مما رأوا ! وذهب كل واحد يكرر كلمة احد المشنوقين :

« لعنة الله على الظالمين ! لعنة الله على الظالمين ! »

«ان يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦ ، سيبقى ذكره في التاريخ شؤما ونحسا ! وهو خليق بأن يذكر في عداد ايام التناهي في الهمجية والوحشية !

« عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عندما استفاضت انباء تنفيذ الحكم في دنشواي ، ولقد كان من المستحيل على اعداء انجلترا ان يصلوا الى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عاما ! ولكن من العجيب ان يكون الموجدون لها هم رجال من الانجليز ! وقد انشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواي اشعارا تخلد ذكرى المناظر الوحشية التي اهينت فيها المدنية والانسانية والعدل بأقسى الصور المهيجة للضمائر والنفوس !

* * *

« واني جئت اليوم اسأل الامة الانجليزية نفسها والعالم المتمدن ، اذا كان يصح التسامح في اغفال مبادىء العدل وشرائع الانسانية الى هذا الحد ؟!

« جئت اسأل الانجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها ان يقولوا لنا اذا كانوا يرون بسط النفوذ الادبي والمادي لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية؟!

« جئت اسأل الذين يجاهرون في كل آن ذاكرين الانسانية ، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط اذا حدثت فظائع في بلاد اخرى ، دون فظيعة دنشواي الف مرة ، ان يثبتوا صدقهم واخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفي وحده لان يسقط الى الابد تلك المدنية الاوروبية في اعين العالم كافة !

« جئت اسأل الامة الانجليزية اذا كان يليق بها ان تترك الممثلين لها في مصر يلجأون ، بعد احتلال دام اربعة وعشرين عاما ، الى قوانين استثنائية ، ووسائل همجية ، بل واكثر من

همجية ، ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الانسان ؟!

« اني معجب بكل اخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الانجليز الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشنيعة التي مثلت في مصر ! ولكن لما رأى السير ادوارد جراي (٩١) ان الرأي العام انقاد لهم ، واني قضى على سياسة اللورد كرومر ، وقف في مجلس العموم وتكلم عن التعصب الاسلامي المزعوم في مصر ، وسأل النواب بكل رجاء والحاح الا يشغلوا بمسائل مصر ، حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية ، او بعبارة اخرى سلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق في مصر ، امام خطر اصرح انا علنا بأنه موهوم !!

« ان هذا الخطر الموهوم ليس في ايدي اصحاب الامر من الانجليز الا وسيلة لتسويغ هذه الفظيعة المستنكرة ؛ وفظائع اخرى تقع في المستقبل .

« انه لا وجود لهذا الخطر ! وما الغرض من هذه الفظائع الا احداثه !

« واني اؤكد بحق اقدس شيء في الدنيا انه لا وجود للتعصب الديني في مصر ، نعم ان الاسلام سائد فيها لانه دين الاغلبية العظمى ، **ولكن الاسلام شيء والتعصب شيء آخر ،** لقد انخدع السير ادوارد جراي في هذه المسألة ! واني ارجوه ان يفكر لحظة فيما يأتي : هل لو كان في مصر تعصب حقيقة أكانت تستطيع انجلترا ان تحاكم ٥٢ مسلما امام محكمة استثنائية مؤلفة من اربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم ؟

« هل تنفيذ الحكم في دنشواي بتلك الصورة الهمجية

---

(٩١) وزير خارجية انجلترا وقتئذ .

لم يكن كافيا وحده لاشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود ؟

« ألم تكن كل هذه التحريضات كافية لاخراج الشعب المصري عن اطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقة ؟

« ولماذا لم يثر ذلك التعصب الذي تكلم عنه السير ادوارد جراي معارك كمعركة دنشواي اثناء مسألة « طابة » ، حيث كانت الاغلبية الكبرى من المصريين في جانب تركيا ، مع ان الجنود الانجليزية كانت تمر دائما في كل جهة بكل امان واطمئنان ؟

« لقد اثبتت المرافعات في قضية دنشواي بكل افاضة وبيان انه لا دخل للاسلام فيها ، وان الضباط الانجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعضيدا !

« انه يحق للمصريين ان يطلبوا تحقيقا دقيقا كاملا في المسألة ، وان مصر على بعد يومين من اوروبا ، فليأت اليها الانجليز المحبون للعدل ، الراغبون في عدم ثلم الشرف البريطاني ، وليذهبوا الى المدائن والقرى ، وليروا بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين والمصريين كافة ، وليقتنعوا بأنفسهم بأن الشعب المصري ليس متعصبا ابدا ولكنه شعب كريم ابي ، ينشد العدل والمساواة ، ويطلب ان يعامل كشعب حر لا كقطيع من الاغنام وانه يعمل بكل عزيز لديه لتحقيق هذا المطلب الاسمى ، مطلب الحرية والاستقلال !

« اجل ، ان الشعب المصري شاعر الآن بكرامته ، وذلك امر لا يمكن انكاره بأي حال ، انه يطلب معاملة ابنائه اسوة بالاجانب ، وهو طلب عدل وغير مبالغ فيه ابدا !

« لقد تكلم السير ادوارد جراي في موضوع حماية

الاوروبيين ضد المصريين ! ولكن هل له ان يبين لنا الخطر المهدد للاوروبيين القاطنين مصر ؟ الا يعيشون في اتم صفاء مع المصريين ؟ الا تحميهم الامتيازات الاجنبية ؟ ولكن من يحمي المصريين ؟! الا نرى في بعض الاحيان مجرمين من الاجانب - يحتج النزلاء جميعا على جرائمهم - يعتدون على المصريين ويقتلونهم ثم يفلتون من عقاب المحاكم المصرية ؟! واي عقاب ستعاقب به الجنود الانجليزية التي قتلت الفلاح على مقربة من دنشواي ، وكذلك الضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال ؟!

« ان اللورد كرومر دافع عن نفسه في تقريره الاخير ضد الذين يطعنون على السلطة المطلقة التي يتصرف بها في امور مصر قائلا : ان البرلمان والرأي العام في انجلترا يراقبان اعماله كما ان الصحافة المصرية تراقبها ايضا .

« ولكنها مراقبة باطلة ، لانه ما كاد البرلمان البريطاني يعترض ويحتج على اعمال وحشية كهذه ، حتى قال اللورد كرومر للسير ادوارد جراي : بأن التعصب مخيف على شواطيء نهر النيل ، وانه يجب على البرلمان ملازمة الصمت ! وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوانين مخالفة للعدل والانصاف !!

« لذلك يقضي شرف الامة الانجليزية عليها بأن توازن بين الاقوال الرسمية واقوالنا ، وتقوم باجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية المطروحة امامها الآن بكل استقلال !

« لقد قضى اللورد كرومر الاعوام الطوال وهو يؤكد بأن الامراء والكبراء في مصر هم وحدهم المبغضون للاحتلال ، لانه سلبهم سلطتهم ، اما الفلاحون فانهم يحبونه حبا جما ويدعون بدوام العصر الحاضر !!

« وبناء على ذلك فانه لم يكن اعتداء فلاحي دنشواي

على الضباط الانجليز الا لانهم رأوا احدى نسائهم مجروحة ، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا اقصى درجات البشاعة ، ويحق للعالم كله ان يقابلهما بمزيد السخط ! واذا كان الامر على العكس واتى الفلاحون ذلك طوعا لعاطفة حقد ديني او وطني فيتحتم على اللورد كرومر ان يعترف بأنهم يمقتون الاحتلال وان ادارته ادت الى اخفاق ليس له مثيل ! ويحق عندئذ للمستر « ديلون » ان يقول مؤكدا : « ان خطبة السير ادوارد جراي هي اتعس شرح لمركز انجلترا وسياستها في مصر » .

« على ان الذين يقطنون مصر كافة ويحبون الصدق والحقيقة ، يعترفون بأن حادثة دنشواي لم تكن مطلقا نتيجة حركة عدائية ضد الاوروبيين ، وان المصريين هم اكثر امم الارض اعتدالا وتسامحا !

« ان الخطة الوطنية التي يجري عليها اصحاب النفوذ والتأثير في الرأي العام المصري واضحة جلية ، فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم انهاض شعبنا وتعريفه حقوقه وواجباته ، وارشاده الى المقام اللائق به في العالم ، واننا ادركنا من اكثر من قرن انه لا يمكن للامم ان تعيش عيشة كرامة اذا لم تسلك طريق المدنية الغربية واننا اول شعب شرقي صافح اوروبا واننا مستمرون على السير في الطريق الذي سلكناه واننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقي ننال احترام العالم وحرية مصر ، ومقصدنا الذي نرمي اليه هو استقلال وطننا ، ومحال ان يوجد شيء ينسينا ذلك القصد الاسمى !

« ان عطفنا على الشعوب الاسلامية لامر طبيعي ، ولا تعصب فيه ، وانه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة انه من الممكن اجتماع الشعوب الاسلامية في عصبة

واحدة ضد اوروبا ، والذين يقولون ذلك اما جاهلون او راغبون في ايجاد هاوية بين العالم الاوروبي والمسلمين !

« انه لا سبيل لنهضة الشعوب الاسلامية بغير حياة اسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقي !

« وان لمصر مكانا خاصا بها في الشرق ، فهي التي وهبت العالم قناة السويس ، وفتحت السودان للمدنية ؛ وفيها طبقة راقية الفكر ، وتقدم الامة بالامة يمشي فيها سراعا ، ومن المستحيل ان تحكم مصر وهذا حالها كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة في اعماق افريقية وليس بينها وبين اوروبا اتصال ! الم ير الناس الانجليز ينفعلون ويهيجون ضد ما يجري في جهات الكونجو وغيرها من البلاد ؟ فكيف يسمحون اذن بحدوث افظع الجرائم في مصر ؟

« انه من الواجب على اوروبا كلها ان تهتم بمصر ، فان صوالحها فيها جسيمة والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها ، وان القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان الا الى هياج الشعب المصري وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية .

« اننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية ، نطلب دستورا ينقذنا من السلطة المطلقة ، ولا شك انه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدل في انجلترا الا ان يكونوا معنا ويطلبوا مثلنا الا تكون مصر ــ تلك التي وهبت للعالم اجمل وارقى مدنية ــ ارضا تمرح الهمجية فيها ، بل بلادا تستطيع المدنية والعدالة ان يبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة ارضها المباركة » !.

« مصطفى كامل »

[خطبــة عــن] :

((عمل محمد علي وواجبات المصريين نحو وطنهم)) (٩٢)

سادتي وابناء وطني الاعزاء

اني اذا وقفت الليلة امامكم لاذكركم بمجد مضى ، وعظمة خلت ، واحيي معكم اكبر تذكار في حياة مصر والمصريين ، فاني اعلم انكم جئتم مرتاحين لسماع هذا الخطاب ، وانكم ترون مثلي ان خير احتفال يقام لاكبر عامل من عمال المجد المصري ، هو المقارنة بين ايامه وايامنا ، واعماله واعمالنا ، واستنباط عبر التاريخ النافعة ، وعظاته البالغة ، وتمثيل الوطن في مجده وعظمته ، واظهاره للعيون والابصار على حقيقة الحالة الحاضرة ، اسيفا كئيبا حزينا ، مرتديا ثياب الحداد ، باكيا على ايام كان فيها حامل الشرف والفخار بين الممالك والاقطار ، أي حال حال مصر في هذا اليوم بعد مرور مائة عام هجرية على الحادث الخطير ، والامر العظيم الكبير ، على اجتماع الامة واتفاقها حول رجل واحد ، واختيارها له اميرا عليها ، يدبر شئونها ، ويرفع شأوها ، ويعلي مقامها ، أي حال حالها ، وأي موقف موقفها ، وهي التي ملأت الدنيا دويا ، ونافست اقوى الممالك في جلالها ، ثم انحدرت انحدار السيل من قمة ذلك الموقف العالي ، حتى هوت الى هاوية ذل وانحطاط ، وصارت مثالا للمسكنة والهوان ؟!

صبرا ايها الوطن المحبوب على بلواك ! فما ازدحم بنوك اليوم الا لينشدوا اكبر العصور وأجل الايام ، ويجمعوا أمرهم

---

(٩٢) القاها مصطفى كامل في الاحتفال الذي اقيم بمناسبة مرور مائة عام هجري على تولي محمد علي باشا حكم مصر .. أي في ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ م .

بينهم على احيائها بالجد والعمل والوفاق والوئام ، صبرا ايها الوطن العزيز صبرا ! فقد ناجت الضمائر الضمائر ، وتفاهمت النفوس والخواطر ، وشعر كل مصري بأنه الوارث لافضل الاوطان واعز البلدان .

صبرا صبرا ! فمن الذي يرى ذلك الظل الممدود ، ظل مؤسس العائلة الحاكمة (محمد علي الكبير) ويبصر بعين بصيرته روحه الطاهرة ترفرف فوق الرؤوس ، ويسمع صوته العالي يذكر المصريين بأقدس الواجبات نحو الوطن واهله ، وينظر بعين الحقيقة الى يده القادرة العاملة ، مشيرة الى سبيل الفلاح والرقي ، من ذا الذي يرى ويبصر ويسمع ذلك ولا يعتبر ؟ من ذا الذي ينتسب بدمه او بماله او بعلمه الى ذلك الرجل العظيم ولا تصغر نفسه في عينه اذا رآها نفس رجل دون الرجال ؟

من ذا الذي يذكر منا مجد مصر في عهد ذلك الامير ولا يذكر انه مسئول عن زواله ، مطالب باسترداده ؟

اسمع المعترضين يقولون : عجبا عجبا ! أيؤمل الخطيب ان تنال مصر في حاضر الايام او في مستقبلها ما نالت في غابرها ، وتلبس من جديد ذلك الثوب الباهر الفاخر الذي حسدتها عليه الليالي والحوادث ، وسلبته منها يد القدر والانتقام ؟

اجل ايها السادة ! ان للمصري ان يؤمل لبلاده مجدا كمجدها الماضي ، وعزا وسؤددا وجلالا ، كيف لا ، وحياة (محمد علي) واعماله كلها دروس ترشد المصريين الى ان تاج المجد لا يوضع الا على راس العامل المجد ، وان رايات الفخار لا تنال الا بالعمل والجهاد ، وان امة فتحت البلاد والامصار يوم كانت لا تتجاوز ثلث عددها اليوم قادرة على

بلوغ غاية العز والرفاهية ونيل اسمى ما يرام مـن الحضارة والعمران .

كيف سار (محمد علي) بمصر ، وكيف انقذها مـن مهاوي الهلاك ، وكيف اخرجها من عالم الظلمات الـى النور، وكيف فتح بها وضرب وغلب ، وكيف ساد ولم يسد ، وكيف ملأ من جنودها الديار ، واخضع لسلطانها البحار والانهار ، وكيف رفع ذكرها الى اعلى منار ، وجعلها عاصمة الشرق ومصدر الانوار ، وكيف ابهج هذا الثغر بتزاحم الجواري في ثغره ، وعمم المعامل والمصانع في المدائن والقـرى ، ونشر المدارس والمكاتب في انحاء البلاد ، واخرج من ابنائها نجوم علم يهتدى بهم ، ولا يضل بنورهم ؟

كيف وفق هذا الرجل العظيم لهذه العظائم ؟ كيف اباد المفسدين والظالمين ، وجمع القطر تحت لواء واحد وكان ألف قطر في وطن واحد ؟ هل استعان بغير المصري علـى تحقيق غاياته ، ام استعار امة من حديد ورجالا من صلب وارواحا شبت بين الموت والنار حتى اوتي ذلك الجلال ، ونال مـن العظمة ما نال ؟

كلا ! لم يصل الى ذروة المعالي واقصى غايات الرجال الا بعقلك وبأسك ايها المصري العزيز ، فسلاما والف مرة سلاما على هذا العزم المقبور وهذه الهمة المدفونة ، سلاما على مـن نسي نفسه بعد ان انسى العالم كل انسان سواه .

سلمت الامة المصرية امرها لمحمد علي والبلاد ممزقة بين المماليك ، يذيقونها انواع العذاب والنكال ، والشرع فـي ايديهم شرع الجور والاعتساف ، والقانون في قبضتهم قانون الظلم والاستبداد ، والبلاد منقسمة على نفسها . اسمها مصر وهي الف قطعة وقطعة ، لا جامعة بين اهلها ولا رابطة بين بنيها ، ولا راحة ولا نعيم ، ولا جرية ولا عمل ! . . . .

تولاها الرجل العظيم وهي عليلة ضئيلة لا حراك بها ، فقطع دابر المفسدين والاشرار ، وازال دولة المماليك كما يزول الغبار ، وانقضت تلك السلطة المريعة التي قوضت اركان الدين والعقيدة ، وهدمت بنيان الوطن والامة ، وما تركت فضيلة حتى جنت عليها ، ولا رذيلة حتى مجدتها ، انقضت وكأنها ظل زائل او سحابة صيف لم تدم الا قليلا ، انقضت والعالم بين مصدق ومكذب ، يتساءل : كيف اتيح لرجل واحد ان يحول مجرى الليالي والايام ، ويغير تيار الحادثات العظام ؟

مضت ايام المماليك ووقف (محمد علي) ناظرا الى هذه الامة ليرى اي امر تقدر عليه ، واي عمل تستطيع ، فرآها بعد عهد الشقاء ، وزمن البلاء ، وايام المحن والفتن ، قادرة على القيام بأعظم الاعمال ، فيها من روح الحياة وقوة النهوض ما يزحزح الجبال الراسيات ، وتخر امامه الشم الثابتات ، فجند من اهلها الجند ، وأي جند جند ؟ جند الغزاة الفاتحين ، حماة النصر والفخار ، جند من المصريين قوما لا تراهم امة حتى تسلم وتستسلم ، جند من اعلوا مكانته ، ورفعوا رايته ، وجعلوا اسم مصر في كافة الارجاء والآفاق عنوانا للمجد الرفيع والشرف الصحيح .

اخرج من أولئك الفلاحين الذين طالما تصرفت فيهم الكوارث كما شاءت ابطالا وشجعانا اهتزت الارض تحت اقدامهم اجلالا واعظاما ، وعجزت جيوش العالم عن مجاراتهم ومناظرتهم ، بعث (محمد علي) من السكينة عزما ، ومن السكون همة واقداما ، وسار جيشه من مكان الى مكان حاملا لواء الظفر والغلبة ، فائزا في كل بقعة بالنصر والفخر ، فما هذه الروح العجيبة التي نقلت بني مصر من حال الى حال حتى صار الجريح يأبى ان يغيب عن ميادين القتال ، والطفل

ولوعا بمناظر الحرب والنزال ؟ ما هذا التغير الفجائي الـذي اندهش لآثارة العالم طرا ؟ وأي سر جعل الامة المهضومة الحقوق ، المسلوبة الارادة ، امة فتح وغزو وفوز ونصر ؟

السر في هذا الانقلاب وذلك التغير ان الرجل العظيم الذي تولى امر مصر ادرك بواسع عقله **ان في امتها كنوزا من الشهامة والذكاء مدفونة ، فكشف عنها الغطاء واظهرهـا للعالمين ساطعة بهية تخطف الابصار** ، السر في ظهور المصريين على مرسح العالم بمظهر الفاتحين القادرين ان (محمد علي) لم يترك لليأس سلطانا على نفسه ، ولم يقف في طريقه لاول عائق حاول منعه عن العمل ، بل اجتاز المصاعب والعقبات بعزيمة ماضية وثبات دونه الحديد قوة وبأسا .

اجتاز المصاعب ، ولم يرضه ان تكون مصر قوية فـي البر ضعيفة في البحر ، فوهبها اسطولا ضخما لم يمض على انشائه وتكوينه اكثر من اربع سنوات ، وهبها اسطولا كان في الصف الاول من اساطيل العالم ، تباهي بـه الاسكندرية ثغور الارض ، وهو يباهى بها وبوادي النيل الدنيا ومن عليها .

كان الغربيون اذا جاءوا مصر زائرين يقفون امـام هذا الاسطول حائرين مندهشين ، بهرتهم عظمة مصر وارتقاؤها سلم المعالي في قليل من الاعوام .

ما عساي اقول اليوم عن جيش مصر واسطولها ، ولو نقلـت اليكـم كتابات المنشئين والمؤرخين ، وآراء جماعات الكتاب عنها لخلتم هذا الوطن غير ذلك الوطن ، ومصر غير مصر ، ولظننتم ان حادثا استثنائيا محا امة عادها الزمان فلم يترك لها ارادة ولم يلبسها غير لباس الوهن والاستسلام .

رددوا الطرف معاشر المصريين في صحف التاريخ ، تروا ان مصر لم تكن ميدانا للجنود والبحارة المثلين ارفعة قدرها ليس الا ، بل تبدو لكم مصر المحبوبة فوق ذلك في مصاف

الامم الصناعية ذات الشأن الاول ، تبدو لكم المدائن والقــرى مزدحمة بالصناع والعمال يحيون اطيب حياة ، ويخدمون الاوطان اشرف خدمة ، تبدو لكم بولاق، والخرنفش، وشبرا، وقلبوب ، وشبين ، والمحلة الكبرى ، وزفتي ، وميت غمر ، وفــوة ، ومنــوف ، وابيــار ، والاشمونيين ، والمنصورة ، ودمياط ، ودمنهور ، ورشيد ، والاسكندرية ، والروضة ، والجيزة ، وبني سويف ، والمنيا ، واسيوط ، وابوتيج ، وفرشوط ، وملوى ، ومنفلوط ، والفشن ، وطهطا ، وجرجا، وقنا ، ميدانا للمعامل والمصانع والورش على اختلافها ، وتبدو لكم بحليها وحللها زاهرة عامرة ، تسعد مصر والمصريين ، وتكفي البلاد حاجاتها ، وتوفر لاهلها ثروتهم ، ولا تعطي الاجنبي من خيراتها الا بمقدار .

ارجعوا البصر كرة اخرى الى مصر قبل عهد (محمد علي) ، وقارنوا بين حالها في ذلك الحين وما صار اليه فــي عهده ، تجدوا ارضا بلقعا تحولت الى رياض وجنان ، وفضاء واسعا صار فيه الالوف والملايين يحرثون الارض ويزرعون ويستثمرون ، وشقاء تولى ونعيما اقام ، وفوضى زالت وامنا استتب ، وزراعات جديدة دخلت الى البلاد فأحيتها وانمت ثروتها وملأت نواحيها رغدا وسعدا .

ومن ذا الذي يستطيع ان يقف امام هذه الامة موقف المحقق المدقق وينكر على (محمد علي) فضله في احياء اراضي القطر ، ونقل زراعة القطن اليها ، واياديه البيضاء على كل من يعيش من الزراعة ويعكف عليها ؟ مــن ذا الذي ينكــر اصلاحاته العديدة في الري ، والقناطر البديعة التي اقامها ، والمصارف التي انشأها ، والمشروعات التي لا تزال قاعدة لكل اصلاح ؟ من ذا الذي يحارب الحقيقة والتاريخ ليتجاهل ان مصر تجني اليوم من ثمرات اعمال (محمد علي) عشرات

الملايين من الجنيهات ، وانه صاحب الفضل الاكبر على كل فرد من اهلها والنزلاء المستوطنين بها .

محال ان تخرج مصر واحدا من ابنائها يأبى على الحقيقة والوطنية اعلان فضل (محمد علي) والاعتراف بأعماله الجسام ، وافعاله العظام ، ومحال ان ينسى مصري تربى في عهد العلم والادب احسان هذا الاب الكبير والمحسن البار العظيم ، وهو الذي تعلم القراءة والكتابة بعد الاربعين ليكون خير قدوة للمصريين ، وهو الذي فتح المدارس والمكاتب ، وملأ الديار نورا وعرفانا ، وتولى تربية صغار الفلاحين فبهر العالم بفرط ذكائهم وعظيم استعدادهم للتعلم والانتقال من شأن الى شأن .

دعوا المصانع والمزارع ، واسألوا كل متعلم في مصر : ماذا كان يكون حالك لو لم يعلم (محمد علي) اباك من قبل ؟ اما كنت تكون في ظلمات الجهالة ، بعيدا عن مشارق النور والحياة والوجود ؟

اجل ، ان كل مصري شب وتعلم وتهذب ، وعرف ان حياة الفكر والجد هي الحياة الصحيحة ، وادرك ان اسمى الهبات هبة العقل ، وان اجمل حلية لهذه الهبة الغالية تثقيفها بالعلوم والمعارف ، مدين لمؤسس العائلة الخديوية بما هو فيه من نعمة ونعيم ، وانه لخليق بكل مصري نال العلم بفضل (محمد علي) ان ينتسب اليه بالروح والوجدان انتساب بنيه وذويه اليه ، ويسلك السبيل الذي وجه الهمم والعزائم اليه ، ليبلغ بالوطن والبلاد الشأن الاولى والمقام المحمود .

ايها السادة : مهما بحث الباحث في حياة (محمد علي)، ومهما حكم على عصره ، فانه لا يستطيع الا الاعتراف بأنه **احاط مصر بسور من القوة والرهبة ، ورمى الى انشاء حكومة**

منتظمة فيها ، تدير امورها على قواعد راسخة واصول ثابتة، وجمع شملها ، فبعد ان كانت مفرقة موزعة على المماليك ، يتصرف كل واحد منهم في الاموال والارواح والاعراض كما يشاء وتشاء الاهواء ، صارت وطنا واحدا لامة واحدة ، يجمعها لواء واحد ، تحت سيادة امير عظيم ، لا يذكر اسمه الا مقرونا بالاحترام والاعظام .

ومهما اختلف الناس في اعتبار نتائج اعمال (محمد علي) ، فلا مراء في انه وهب مصر عقلا مدبرا ، وقلبا شاعرا، وساعدا شديدا ، ومجدا تليدا ، وانه وهب المصريين وطنا وامة وحكومة ولسانا ، وطبع على قلوبهم وافئدتهم محبة الوطن والشهامة والاقدام ، وحبب اليهم الفتح والنصر ، ورفع الراية المصرية على كل صقع ومكان .

انظروا معاشر المصريين الى سياسته في حكومته تجدوها قائمة على مبادىء ثلاثة ، لا تدوم دولة بغيرها ، ولا تحيا مملكة بغير احيائها : وهي **اولا** : حماية الوطن من اعتداء الاجنبي وسلطته ، **ثانيا** : ترقية الجيش المصري الى اسمى الوظائف ، وترشيحه الى استلام مقاليد الامور ، حتى لا تحتاج البلاد لاجنبي يزاحم بنيها ، وتدريب المصريين على كل عمل وصناعة ، حتى تحفظ الثروة الاهلية في البلاد ، ويزداد الوطن عزا ورغدا ونعيما ، **ثالثا** : الامتناع عن الدين واجتنابه كل الاجتناب .

بأي قلب ام بأي ضمير ام بأي لسان احدثكم عن حماية الوطن وصيانته ومنع اعتداء الاجنبي على ربوعه ، وصده عن منازله ، ومصر اليوم تمثل الاستسلام للانجليزي والرضوخ لسلطته ، والامتثال لارادته ؛ وهي هي التي ردته عن الديار تحت امارة (محمد علي) ، وفي ظل رايته ، وقالت له : مكانك ايها المهاجم ! مكانك ايها الداخل ! مكانك ايها المزاحم ،

اني امة حية تأبى الضيم والهوان ، ولا تدرك للحياة معنى بغير الحرية والاستقلال !

بأي قلب ام بأي ضمير ام بأي لسان احدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ، ودفاعهم عنه ، ونضالهم عن حوزته ايام (محمد علي الكبير) ، وقد حاولت انجلترا ان تقضي على هذا الملك الجديد ، وهذه الدولة الناشئة ، وتزيل من سماء المجد والاقبال هذه الشمس المشرقة ، فأراها يومئذ بنو مصر اي امة هم ، وأراها (محمد علي) أي امير هو ! فتركت الثغور والبلاد ، آسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر ، والعزم القاهر ، والوطنية الحقة ، والهمة الحديدية .

اعجبوا ايها المصريون لهذا الحادث الخطير ، ولتصرفات الليالي ، كيف أفرحت مصر وابكتها في يوم واحد ، افرحتها في يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٠٧ حينما جلت الجنود الانجليزية عن ثغر الاسكندرية بعد احتلال دام ستة اشهر ، وابكتها في يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٨٢ حينما دخلت الجنود الانجليزية عاصمة الديار المصرية !.

كوفئت مصر في يوم بأكبر مجد واشرف فخار، وعوقبت في مثل ذلك اليوم بعد خمسة وسبعين عاما باحتلال جر عليها العار والشنار ، كوفئت لانها صانت الوطن والديار ، وعوقبت لانها سلمت البلاد ، وانشقت على نفسها ، ونسيت تاريخها، وتناست مطامع اعدائها ، وامتلأت نفوس دعاة الثورة فيها بالانانية والاغراض الذاتية والآمال الشخصية ، فذهب الوطن فريسة ، وقدمت الامة على هيكل الدنايا ضحية ، وتولى المجد القديم والعز التليد ، واقام الذل والهوان .

هذه عبرة العبر في التاريخ ، وموعظة المواعظ ، فالتقطوها معاشر المصريين الراغبين في خير البلاد ورفعتها،

واذكروها في كل وقت وآن ، اذكروها ، وتأملوا في تاريخ ذلك الرجل العظيم ، تأملوا كيف ينتدب علماء الغرب وحكماءه وسادات ادبائه وفضلائه ليعلموا المصريين العلوم والصناعات، حتى اذا صاروا من رجالها ، وتحلوا بجمالها سلمهم مقاليد الاعمال ، وكافأ المعلمين الغربيين على عملهم ، وزودهم بالشكر والاحسان .

رأى محمد علي ان الدين ـ (بفتح الدال) ـ اساس الاستعباد ، وان اسمى المباديء الجديرة بالاتباع مبدأ القائلين : « ادن تستعبد واستدن تستعبد ! » ، فلم يستدن لانه خطب السيادة ولم يخطب الاستعباد ، وطلب القوة ولم يطلب الضعف والمذلة .

حقا انها لآية الآيات ، ومعجزة المعجزات ، كيف يشيد (محمد علي) المدارس والمعامل ، ويقيم الابنية للجنود والعساكر ، وينظم الري والفلاحة ، ويشكل جيشا بلغ عدد رجاله مائتين وثمانين الف جندي (٢٨٠٠٠٠) واسطولا كان البحارة فيه لا يقل عددهم عن ستة عشر الف بحري (١٦٠٠٠) وكانت ايرادات مصر اذ ذاك لا تتجاوز مليونين ونصف مليون من الجنيهات ، ثم لا يستدين عزيز مصر ولا يعرف الدين ولا الدين يعرفه !

ائتوني بعظماء الرجال ، وكبراء الامم ، وفحول السياسة ، واعرضوا عليهم هذا العمل المدهش ، وهذه الآية الكبرى ، وانا كفيل بأنهم لا يصدقون به ولا يؤمنون بها ، هل في طاقة رجل مهما بلغ من العظمة وقوة الارادة ان يقوم بهذه العظائم ، ولا يتعثر في ذيله بالديون الثقال ؟ من هذا الرجل الذي تعدى حدود الطاقة البشرية حتى استطاع ان يخرج امة من الجهالة والظلمات الى العلم والنور ، ويشيد فيها ملكا قائما على جيش عديد ، واسطول قوي رهيب ، ومعامل

ومصانع ومدارس ، ثم لا يستمد بمال الغير ، ولا يستعين على اعماله بغير قوة البلاد ، وهي التي حملها الزمان من قبل ما يدك الجبال ، ويفل الارادة الماضية ، ويودي بعزائم الرجال ؟

ما هذا المجد الفخيم الذي يحدثنا عنه التاريخ ؟ اين ذلك المصري الذي كان اذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الانظار والتفتت اليه الشعوب بعيون الاعجاب والاعتبار ؟ اين ذلك الذي اذا فاخر القوم ببلادهم اعطى المقام الاول ، ونال الشرف الاعلى ، وعد وطنه في مقدمة الاوطان ، ومصره في الصف الاول من مضاف الامصار والبلدان .

اين عصر نقل عنه الناقلون ان الدول غدرت بمصر وحرقت اسطولها في ثغر (ناورين) ، واماتت من بحارتها البواسل ستة آلاف رجل ، وتقدم ضابط فرنساوي بالخبر الى رجل الحروب وبطل المواقع ابراهيم باشا ، فهز الامير رأسه وقال : « وما انشئت السفن والبواخر الا لتكون فريسة النار او البحار ، فلست بآسف عليها ، وان ابي لقادر ان يجدد مثلها في عام او بعض عام ! » .

اين ذلك العهد البعيد ليتعزى به المصري الحزين الاسيف ؟ اين هو ليبعث في القلوب المستميتة شيئا من الحياة والقوة ، ويدل المصري على حقيقة موقفه وقيمته ومكانته ؟ اين هو ليخطب فيكم بلسان الحال فيبلغ من نفوسكم ما لا يبلغه لسان المقال ؟

اين كانت اليابان يومئذ ؟ اين كانت هذه المملكة الناشئة والدولة الفاخرة ؟ كانت — وكأنها لم تكن — في دياجي الظلمات وغياهب الجهل ، تعد ، اذا ذكرت ، في عداد الاموات . فقف ايها المصري فوق اطلال التاريخ وارقب الحوادث وانظر الى أي حال صارت اليابان ، والى أي حال

صرنا ، وماذا كنا نبلغ من الشأن والشأو لو سلكنا ذلك السبيل الذي وجهنا اليه محمد علي الكبير . ليس الموقف موقف حزن يميت النفوس ، بل موقف عظة واعتبار ، وان العبرة الكبرى في حياة (محمد علي) والدرس المفيد الذي يلقيه التاريخ على ابناء هذه الديار ، انهم لم يفقدوا العصبية والوحدة الملية، ولم يقفوا في طريق التقدم على حين استرسل غيرهم في السير الى الامام الا لانهم فقدوا الثقة بأنفسهم ونسوا ما قاموا به من جلائل الاعمال .

ثقة الامة بنفسها هي الاساس الذي يبنى عليه مجدها ويشاد عزها وسؤددها ، ترى الامة اذا اعتقدت الخير والقدرة في مجموعها وافرادها تغلبت على الحادثات والايام وقهرت ألد اعدائها واجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلة .

هذه امم الغرب ، يترك الفرد من ابنائها بلاده ، ويطوف الارض من جانب الى جانب ، وهو في كل مكان ينزل به قوى الجنان ، شاعر بأنه الممثل لوطنه ، الدال عليه ، معتقد انه رايته التي اذا اهينت أهين ، واذا مست بسوء قامت لاجلها بلاد وقعدت ، وما هذا الاعتقاد وذلك الشعور الا لان الامة وثقت ببعضها ، وارتبط كل فرد ببقية افرادها ، فصارت كتلة واحدة لا يعتدي عليها زمان ولا يجرؤ على المساس بها انسان .

اما الامة التي ظنت السوء بنفسها ، وتركت هذا الظن الفاسد ميراثا لابنائها واحفادها ، فقل عليها السلام ، وادعها : امة الموت والفناء .

لا يؤلم المصري المحب لبلاده مثل ما يسمعه ذات اليمين وذات الشمال من سوء مظنة المصريين بانفسهم ، وتناقل هذه الاقوال المميتة للخواطر ، القاتلة لكل حركة ، واردة من الكبير الى الصغير ، وشيوعها حتى بين الاطفال الناشئين .

ما هذا السم القتال الذي تناولته الامة عن طيب خاطر ؟ ما هذا البلاء المدمر للبلاد الذي حل بها وتساقط على رؤوس اهلها وهم اليه ناظرون ؟ كيف تنسى هذه الامة العزيزة انها هـي التي فتحت وقهـرت ، وضربت وانتصرت ، وبهـرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها ؟

لا ريب ان اصل هذا البلاء وجرثومة ذلك الداء اهمال امر التربية الوطنية ، ومحـو آثار التـاريخ المهذب للعقول والارواح من المدارس والمكاتب ، **التاريخ التاريخ ! هو المدرسة الجامعة لكل طبقات الامة ، والمعلم الذي يتأدب بأدبه الامير الخطير ، والوزير الشهير ، والعالم والطالب ، والفقير الصغير ،** من ذا الذي يقرأ تاريخ محمد علي ويرى على صفحاته آيات الشهامة والبسالة التي حلى بها المصريون ايامهم واسماءهم واوطانهم ولا يشعر بأنه ينتسب لامة عالية ، ان اهانها الزمان اياما فلسوف يرغم علـى احترامها واكرامها ورد سؤددها اليها ؟ من ذا الذي يسمع بتلك السفن الجارية ، والجيوش الجرارة ، والمعامل العديدة ، والمدارس الجمة ، والحيـاة العامة ، والاستقلال المصان ، ولا يرى نفسه من سلالة قـوم فاتحين متمدنين جديرين بأن يخلد مجدهم ، وتدوم ايامهم .

يقول الجاهلون : ان الزمان لم يترك من آثار محمد علي شيئا مذكورا ، ولا يدرون انه ترك شيئا كبيرا ، وترك بذور المجد والمدنية ، ترك المواد الحيوية لاحياء الامم واعلاء قدرها ، ترك العلوم والانوار .

ان لم يكن الا هذا الاثر ــ اثر العلوم والمعارف ــ فحسب العصر الماضي شرفا وفخارا ، لانه القى الينا السلاح الذي ما حارب الجهل والرذيلة حتى تغلب عليهما ، القى الينا مفتاح الرقي والتقدم ، وآلة المجد والغلبة ، وسلم السؤدد والمعالي ، ونبراس الكمال ، القى الينا معدات الحياة ، فان استخدمناها

كما استخدمها سدنا كما ساد ، وسادت الديار ، وان اسأنا استعمالها اسأنا الى انفسنا ، وقضينا على الحاضر والمستقبل شر قضاء .

قد ينسى بعض المصريين ان (محمد علي) تولى امر البلاد باختيار اهلها وانتخابهم ، وان علماء مصر واعيانها رفعوه الى الامارة بأيديهم في مثل هذا اليوم من مائة سنة هجرية مضت ، وان هذه رابطة اكيدة بين الامة والعائلة الحاكمة لا يصح لاحد ان ينساها ولا يليق بمصري ان يتناساها ، هذا اخاء بين الشعب والامير لا تنفصم له عرى ولا ينحل له رباط .

اذا كانت مصر لم تذكر في بعض حوادثها الماضية وايامها السالفة هذه الرابطة وهذا الاخاء ، مما اودى بها وساقها الى مهاوي الدمار والشقاء ، فخليق بها ان تذكر الآن وفي كل آن هذا العهد المتين وتزداد بعرش الخديوية ارتباطا وتعلقا كلما مضت الايام وتوالت الاعوام .

وكيف لا يذكر المصريون ذلك العهد ويبذلون الارواح والاموال في سبيل تأييده وصيانته وهو هو الحامي لبقايا المجد والاستقلال .

في أي موقف يرى المصري بلاده الآن ؟ في موقف البلاد المستعبدة التي تنتظر من وقت الى آخر تحقيق وعود دولة متمدنة عظمى ، ولا تزف لها الايام الا مطلا في الوعد وبلاء على بلاء !.

دخلت انجلترا هذه الديار مدعية اصلاحها ، وتأييد عرش الخديوية المصرية فيها ، ونشر الوية الامن والعدل في نواحيها ، واعداد المصريين الى ادارة شئون بلادهم بأنفسهم ، ثم الجلاء عنها وتركها لاهلها ، فماذا عملت واي طريق سلكت والى اي نتيجة وصلت ؟

كان اول عمل للدولة الانجليزية انها قدمت الوعود والعهود للعالم كله بالجلاء عن مصر ولو بعد حين ، وتركها لاهلها المصريين ، فاعتقد صدق اقوالها الكثيرون من الشرقيين وقالوا : « محال ان يكذب القوم المتمدنون ! » لانهم لم يكونوا ليعلموا ان السياسة الغربية قائمة على مخالفة الوعود والنكث بالعهود ، وان المدنية البريطانية تطلب سيادة الامم من مثل هذا الطريق ، حتى صرح الساسة الانجليز انهم لم يقدموا هذه الوعود وتلك العهود الا للسذج والبسطاء ، وانهم ينزهون العقلاء والحكماء عن التصديق بوعد في السياسة او بعهد في تدبير امتلاك الامم واغتيال حقوقها !، فعلم المصري يومئذ ما لم يكن يعلم ، علم ان انكلترا احتلت بلاده لتقيده بقيود الذل والاستعباد ، لا لتضع على رأسه تاج الحرية والاستقلال ، علم ان وطنه صار مرمى السهام البريطانية ، وان حياته ومجده على خطر ، وسمع صوت البلاد يناديه : الحذار ! الحذار !

ولكن صوت الانجليزي ارتفع ليدله على وسائل الرضوخ للمذلة والاستماتة ، ارتفع ذلك الصوت ، صوت العاملين على ابتلاع مصر ، مناديا بأن المصريين لا يزالون امة طفلة ، محتاجة لمرب حكيم ، ومرشد عليم ، فهل هم المربي وذلك المرشد ؟

دل سلوك انجلترا في مصر ، ويدل ، على انها لا تريد لعرش الخديوية قوة ، ولا للبلاد خيرا ، ولا للمصريين تقدما وارتقاء ، ونحن لا نقول هذا القول جزافا ، بل نقدم عليه الف برهان وبرهان ، وما دام الانجليز يفاخرون ويفتخرون بحرية القول والكتابة فاننا نناقشهم الحساب ، ونسألهم امام الملأ كله عن نتائج سياستهم بعد عشرين عاما ، نسألهم : اين الامن الذي ادعوا توطيد اركانه ؟ هل ازدياد الجرائم والجنح والمخالفات ، وتعدد السرقات ، وكثرة اللصوص ، واعتراف

النائب العمومي بذلك كله ، وتفنن الاشرار في اشعال النيران وحرق القرى والبلدان ، مما تفاخر به انجلترا ، وتعده آية يحق لها ان تمن بها على مصر والمصريين ؟! هل انتقال الوظائف من ايدي المصريين شيئا فشيئا ، وخروج السلطة من قبضتهم ، واماتة كل نفوذ لهم ، مما يرشحهم لاستلام مقاليد الامور والسير بالبلاد الى الامام ؟! هل محو كل روح وطنية في المعارف ، وقلب مدارس الحكومة حتى صار عاليها سافلها ، يؤهل المصريين للتقدم في ميادين الحضارة والعمران ؟! هل انشاء المحكمة المخصوصة ، وتعالي المحتلين على المصريين ، واعتداؤهم على القانون والعدالة والنظام العام ، مما يؤيد المساواة في البلاد ويزيد القطر ارتقاء وانتظاما ؟! هل رفع العلم البريطاني على عاصمة السودان ، واخراج العدد العديد من الضباط المصريين من الجيش بعد ان ابلوا ضد الدراويش (٩٣) احسن بلاء ، وقاموا بأعمال تخلد لهم المجد والفخر ، مما يؤيد عرش الخديوية المصرية ويستوجب حمد المصريين ؟! هل بقاء الحكومة بغير سلطة مراقبة عليها من الامة ، كما يشاء المحتلون ، مما يجعل مصر في بحبوحة الراحة والامن ، ويوطد اركان الدستور فيها ؟!

ذكرت الدستور ، وطالما ذكره الذاكرون من انصار الاحتلال ورجاله ، فأين هو الدستور ؟ اين ذلك الدستور الذي يلجم الحكومة بلجام من حديد ، ويهب الامة حرية الرأي والفكر ، وحق المراقبة على اعمال الحكام ، وسن القوانين والشرائع ، ومناقشة الوزارة عن الصغائر والكبائر ؟ اين ذلك الدستور ، ونحن لا نرى الا مستشارين من الانجليز يحركون الحكومة يمينا ويسارا ، ويتلقون الاوامر من رجل واحد ، ولا يحاسبون امام احد من ابناء هذه الامة ؟ هل معنى الدستور

---

(٩٣) انصار الثورة المهدية السودانية التي قادها محمد احمد (المهدي) .

سقوط السلطة المصرية وقيام السلطة البريطانية مقامها ؟!

كلا ثم كلا ! **انما الدستور هو منح الامة حق الاشراف على كافة الاعمال ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها او لضرها ، وسؤال الوزارة عن كل صغيرة وكبيرة ، وتغييرها بغيرها اذا اساءت استعمال السلطة او تهاونت في خدمة البلاد . الدستور هو الا يستطيع احد ، مهما كان عظيما ، وطنيا او اجنبيا ، ان يمس القوانين والنظامات بشيء ،** فهل يوجد رجل واحد في هذه الامة يجرؤ على القول بأننا اليوم متمتعون بنعمة الدستور ، وان المحتلين لو شاؤوا تغيير اي نظام موجود او خرق سياج أي قانون لا يستطيعون ؟

لعمري ان ما يسميه المحتلون وانصارهم بالدستور لهو الفوضى في لباس النظام ، والاختلال في قالب الاحتلال ، والا فأين الضمانة التي تطمئن لها القلوب والخواطر ؟ ايـن ذلك المجلس الذي وعدت به بريطانيا على لسان اللورد دفرين (٩٤) ؟ اين هو لتعتقد الامة المصرية ان الدولة البريطانية لم تحتل بلادها الا لتسعد حالها ، وتعلي شأنها ، وتوقف المصري على مكانته ، وتعرفه انه انسان له حقوق الانسان ؟!

يظهر بعض الانجليز اندهاشا من قيامنا ضدهم ، ولست ادري كيف أكيف هذا الاندهاش ؟ كيف أكيفه وهم ابناء امة متمدنة ، تعرف معنى الوطن والوطنية ، وتدرك ان الحرية هي اسمى نعيم ، وان صيانة البلاد من اعتداء الاجنبي اقدس فرض على اهلها ، كيف أكيفه وقد قال اللورد دفرين : « **انه يحق للمصريين ان يبغضونا من عميق قلوبهم اذا اقمنا طويلا ببلادهم ، مهما اسعدناهم واسبغنا عليهم من النعم ، لان الاستقلال لا ثمن له !** »

---

(٩٤) المعتمد البريطاني بعد الاحتلال الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢ م .

نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلاء ، نحن نرى من الجبن والاستماتة عدم المطالبة بالدستور ، أي بالنظام الذي تتمتع به الامم المتمدنة ، ونحن نرى من موت الشعور وفقدان الوجدان السكوت عن حقوقنا الشرعية التي يعترف بها كل انسان ، ونعتقد ان الانجليز انفسهم يحتقرون كل مصري لا يرى هذا الرأي ولا يجاهر به ، لانهم ان احبوا ان يخون الرجل وطنه لاجلهم ، لا يحبون الخائنين ، وان كرهوا القائمين في وجوههم المدافعين عن بلادهم لا يستطيعون الا تعظيم الوطنية ورجالها انى كانت وانى كانوا !

ايها السادة : اصبحنا بعد مائة عام ، قضينا جانبا منها في الجد والعمل ، وغرس بذور المدنية ، وفتح ابواب مصر والسودان للعالم المتمدن ، في آخر مصاف الامم ، تمتاز عنا الصرب والبلغار وشعوب صغيرة ، لم تكن في الحسبان ، بالحرية والاستقلال والاحترام العام ، فمن البلية والشقاء والموت الادبي ان نقف متفرجين على حركة العالم ونترك الامم الاخرى ترتقي منصة السمو والجلال !

هذه حياة (محمد علي) . . لنا ان نستنبط منها ما يفيد البلاد في الحال والاستقبال ، لنا ان نضربها مثلا للابنـــاء والناشئين ليعلموا ان مصر كانت من القوة والبأس بمكان ، وانها تكون كذلك لو طرقوا ابواب الاتحاد والوئام ، وسلكوا مسالك العزم والاقدام .

لا تقوم مدنية مصر في مستقبل الايام ، ولا يدوم لها شأن الا اذا شيدت على الامة وبالامة ، وعرف الفلاح والصانع والتاجر والمعلم والمتعلم وكل فرد من افرادها ان للانسان حقوقا مقدسة لا يصح المساس بها ، وانه لم يخلق ليكون آلة ، بل ليعيش عيشة الاحياء ، وان حب الوطن هو اسمى

شعور تتحلى به نفس بشرية ، وان امة ضاع استقلالها لا مقام لها ولا شأن لابنائها .

الوطنية ، ايها السادة : هي العماد لكل مملكة والاساس المتين لكل دولة ، الوطنية : هي الروح العاملة في كل بلاد العالم المتمدن ، الوطنية : هي ام المعجزات ، واصل كل تقدم وارتقاء ، الوطنية : هي التي تنقل الشعب الجبلي الى الحضارة والعمران والاقتدار وسمو القدر في قليل من الاعوام ، الوطنية : هي الدم في عروق الامم والحياة لكل ذي حياة .

الوطنية : هي الغذاء الذي يحتاج اليه جسم مصر وروحها قبل كل غذاء، فقدموها للابناء في غدواتهم وروحاتهم وحركاتهم وسكناتهم ، واطبعوها على قلوبهم !.

ايها السادة : ان الرجل العظيم الذي غير احوال مصر ، وكساها حلة من المجد والفخار ، وفق عمله بين مبادىء المدنية العصرية ومبادىء الدين الاسلامي الكريم ، لانه رأى ان في الاسلام كافة المواد الحيوية لارقى مدنية يشتهيها بنو الانسان ، وانه الدين الذي يؤهل اهله وذويه الى اسعد حالات الحياة واتم نعيمها ، فاذا اقتدينا به واعتمدنا على الاسلام وقواعده واوامره وارشاداته ، واخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها ، واعتبرنا بعبر التاريخ ، وتركنا النزاع الذي اضر بمصر والاسلام ، واجتنبنا كل افتراق وشقاق ، بلغنا اقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع .

واننا لا نبغي في هذا الطريق ، الذي يدعونا لسلوكه كل محب لمصر ، معاداة احد من النزلاء ، او الخروج عن خلة اكرام الغريب التي اشتهرنا بها ، بل اننا نشكر كل اجنبي يساعدنا على خدمة الاوطان كما شكر آباؤنا من قبل وكما

شكر تاريخ مصر سليمان باشا ، وفارين ، وسجرا ، وكلوت بك ، ودي سيريزي ، وبسون بك ، وجومار ، وجومل (٩٥)، الا اننا نطالب الاحترام المتبادل ، والاشتراك في المنفعة ، اشتراك اخاء ، لا اشتراك شحناء وبغضاء . وانه يسرني ان اعلن شكر الامة المصرية كلها لاولئك الكرماء من النزلاء الذين شاركوها في مصابها بالحرائق الاخيرة والنوازل المؤلمة ، فجادوا بالاموال عن كرم وسخاء ، وخففوا بها وبصادق العواطف الآلام عن المنكوبين (٩٦) .

يحلو لي ايها السادة ان اختم خطابي بكلمة قالها نابليون يوم دخل مصر ، قال ذلك الرجل الكبير : « لا تكون الاسماء العظيمة الا في الشرق ! » ، فالشرق كان ولا يزال ميدانا واسعا للمجهودات الكبيرة والهمم العالية ، لا يزال الشرق مهدا لعظماء الرجال وكبراء الشعوب ، واذا كان قد حرمهم حينا من الدهر طويلا فما علة ذلك الحرمان الا اليأس والقنوط .

فانزعوا اليأس من قلوبكم معاشر المصريين ، وطهروها من القنوط وسوء الظن بالله وقدرته ، وابنوا مجدكم المقبل على التربية الوطنية السليمة الصحيحة ، وضموا صفوفكم واجمعوا امركم ليخرج من بينكم رجال عظماء يبدلون ليل الاوطان بالنهار ويردون لها ما فقدت من استقلال ومجد وفخار !.

---

(٩٥) خبراء فرنسيون واوروبيون عملوا في الادارة المصرية والجيش المصري على عهد محمد علي .

(٩٦) يشير مصطفى كامل الى حريق مدينة « ميت غمر » الشهير في ذلك التاريخ .

المراجع

الافغاني (جمال الدين) : [الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني] .. دراسة وتحقيق: محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

بروكلمـــان (كــارل) : [تاريخ الشعــوب الاسلامية] . ترجمة : نبيه امين فارس ، ومنير البعلبكي . طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ م .

الرافعي (عبد الرحمن) : [مصطفى كامل ، باعث الحركـة الوطنية] . طبعـة القاهـرة سنة ١٩٦٢ م .

لوتسكـي : [تاريخ الاقطار العربية الحديث] . طبعة موسكو سنة ١٩٧١ م .

لوثروب ستودارد : [حـاضر العـالم الاسلامي] .. ترجمة : عجاج نويهض . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

محمد عبده (الامام) : [الاعمال الكاملة للامام محمد عبده] دراسة وتحقيق: محمد عماره. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

محمد فريد : [تاريخ الدولة العلية العثمانية] . الطبعة الاولى .

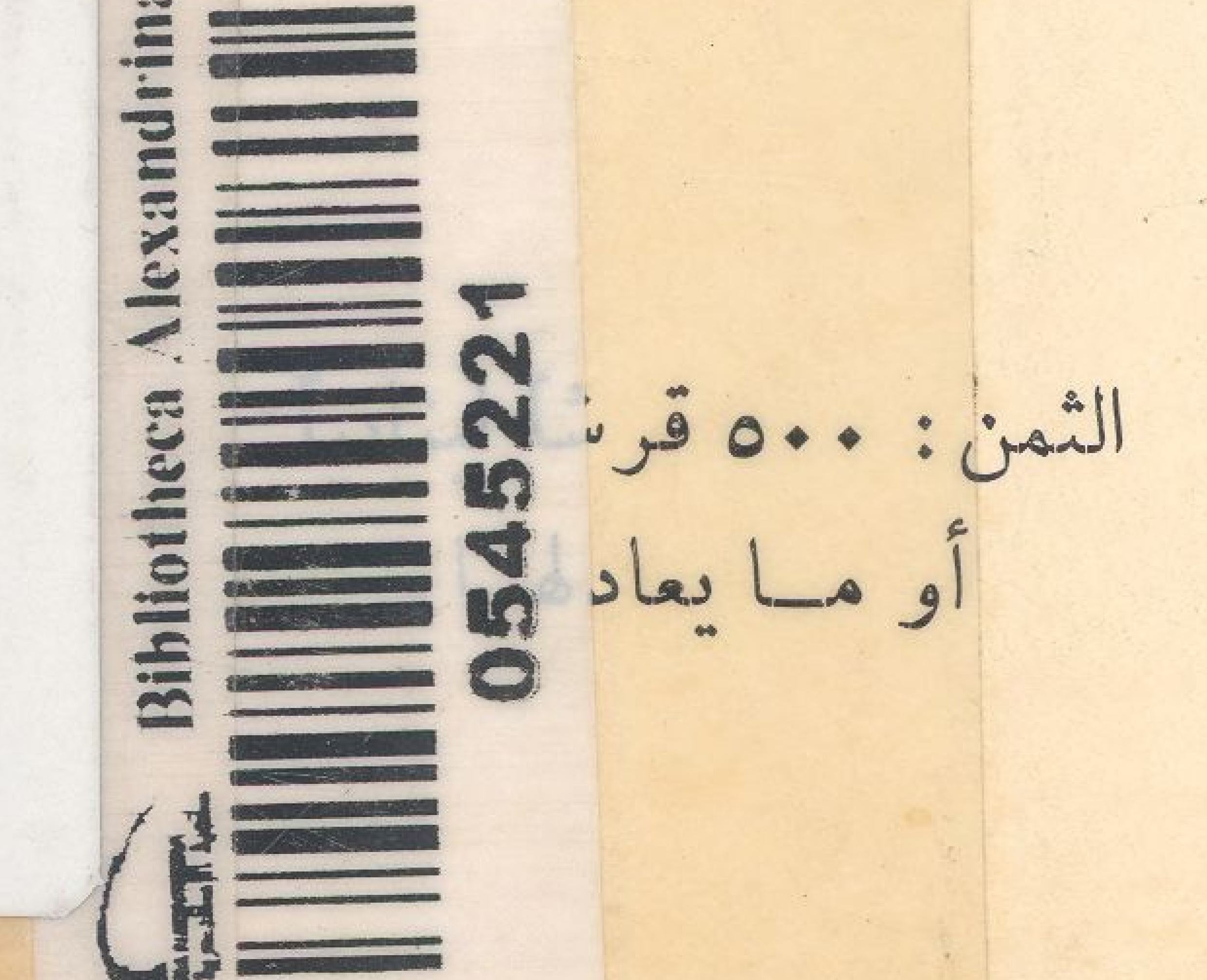
مصطفى كامل : [صحيفة « اللواء »] .
: [صحيفة « المؤيد »] .

فهرس

هذا الكتاب

عبر كل عصور التاريخ كان الصراع بين مصر وأعدائها ، في جانب أساسي من جوانبه ، يدور حول الحدود التي اليها يمتد التأثير المصري في الرقعة الجغرافية المحيطة بها ..

ولقد كان وعي مصطفى كامل بروابط مصر التاريخية والحضارية والنضالية مع جيرانها هو الذي قاده للنضال تحت رايات الجامعة الاسلامية .. من منطلق قومي ولغايات وطنية .. وهو الأمر الذي أفرد له الدكتور محمد عماره هذه الدراسة الأصيلة .



الثمن : ٥٠٠ قرش
أو ما يعاد

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب: ٥٤٦٠-١١ - تلفون: ٢٥٦١١٠
بيروت - لبنان